2272
.69035
.336

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
JUN 13 2013			

Princeton University Library
32101 072574872

في ركاب الشيطان

شاكر مصطفى

Shāltīr, Muṣṭafā

Fī rikāb al-Shayṭān

في ركاب الشيطان

شاكر مصطفى

دار الرواد للتأليف والترجمة والنشر

الطبعة الاولى

دمشق ـ نيسان ١٩٥٥

ما يهمني هو فقط ان تجد كلمتي
روحاً ، روحاً واحدة ، تتجاوب
معها ... لتبدأ المشكلة !
« وانما تبدأ المشكلة حين يمد
الصديق يده للصديق ويقول :
سر معي ! سر معي ! انما نحن
غريبان ! »

(RECAP)

2272
.69035
.336

في الكتاب

أحاديث

شاكر	٩
لمن تكتب ؟	١٥
نحو أدب جديد	١٩
الطين النبيل	٣٣
فى ركاب الشيطان	٥٧
الفن والشيطان	٦٥
بين العلم والفن	٧٣
فى الجمال	٨٣
خبز آخر	٩٣

ثرثرة

بلد العميان	١٠٥
مع الاساطير	١١١
باريس	١٥٩
عام وعام	١٧١
الوجوديون	١٨١
حوار وجودى	١٨٧
ثائر على الماضى	١٩٥
حوار أمام لوحة	٢٠١

أحاديث

شاكر

عرفته منذ زمن بعيد جداً . فرابطتي به ترقى إذا اسعفتني الذاكرة إلى اليوم الذي عرف به الدنيا .

صحبته ثلاثاً وثلاثين سنة طويلة مملة . وكنت معه حيث كان من باريس ودرعا ومصر وفيينا وروما وحي الصالحية العتيق . . وما أذكر أني أنكرته مرة أو خفي عني إلا منذ أمد قريب حين طلعت (النقاد) على الناس بنتيجة استفتاء عن الكتاب السوريين

فاذا اسمه بين الاسماء وإذا هو .. كاتب .. ! لأول مرة استطاعت أقنعة المساخر المضخمة أن تخبىء شاكراً عني وراء الهلاهيل التنكرية فاذا به رأس ضخم وقلم أضخم على جسد صغير صغير يدرج درجاً على التراب !

وضحكت ضحكة رنت في آذان كل من يعرفني ويعرفه. أليس من حقي ان أضحك كما يضحك كل من يحضر حفلات الكرنفال من هذا الدعي الجديد في العالم الادبي ؟. أذلك الفتى الذي كان يضربه أبوه إذا فاجأه يقرأ مجلة قد أضحى كاتباً ، وكاتباً معروفاً في المجلات ؟ وذلك الطفل الذي كان يحمل اللبن للزبائن وينتظر وعاءه الفارغ قد أضحى يحمل الدفء لبعض القلوب ؟ أنا لا أعرفه سريع الغرور ولكني أعرفه سريع التصديق. وأحمد الله انه لم يتعبني بحمل الرقي والتعاويذ اليه كي أدفع عنه سحر الغرور وشيطان العجب ولأقنعه بانه ليس بكاتب ولا كويتب. ولا كويتيب وأنه بعد في اول الشوط. والشوط مستعار ! وأصيل الجياد تشق اشواطها بحوافر كسامير القدر وكم تسرع الاستاذ سعيد الجزائري - سامحه الله ما أطيب قلبه وأغلاه - وكم تسرع وأخطأ في دفعه بين عجلات المطبعة ثم في اعتصار اوراقه الجافة مرة بعد مرة وفي إرغام القراء على معرفة اسمه !.

ان لكل كاتب رسالة ولكن شاكراً لا يستطيع أن يقول ما رسالته ؟ ما اللهب الذي يشرب منه ويسقي الناس ؟ وإنه ، إلى

هذا لا يعرف لمن يكتب ؟ وربما فرح احيانا بما يهزج على قلمه من فكر ولكنه لا يستطيع أن يستبين في ضباب نفسه موطىء قدمه .. أو عكازه !

لقد كتب عنه عدد من أصدقائه ويمدحون . وأعلم أنه يدين لهم بالشكر القلبي ولكني أتهمهم بأنهم كانوا يكتبون عن صديق وكانوا يصدرون فيما يكتبون عن روح الصداقة التي تربطهم به ولو أنصفوا الحق لقصوا عدة أمتار من ذلك الثوب السابغ الذي ألقوه عليه . ولو شاؤوا التخلي عن نظرة الرضى - وهي في العادة كليلة عن كل عيب - لوجدوا فيه العديد من العيوب وهو نفسه لا يخجل من الاعتراف بعيوبه !

ولقد عرفه القراء من خلال أصدقائه بوجه مجمل بالأصباغ والبريق الزائف ، كعروس « الحلوة » ولقد وددت أن أقدم ذلك الوجه على نسخته الاصلية بكل مافيه من تجاعيد وألوان كامـــدة .. ولكني لا أستطيع أن اكتب عنه دون أن يتحول مـــا اكتب إلى اعترافات .. اعترافات لا تنفع أحداً ولكنها تجرح ضميري وضميره معاً !

اتراه يسامحني على ما اجترح في حق سمعته ؟ .

عرفته جم العمل وله في كل ميدان علاقة يقبل عليها بشغف متجدد غريب ، كالملاح الذي يتخذ في كل ثغر زوجة .. ويزعم لها أنها ثغره الوحيد ! إنه يسمى ذلك نشاطاً وأسميه أنا هرباً واتلافا . فهو ابداً كالمنفلت من دوامة لا تراه إلا مسرعاً كمن

تلاحقه السياط ولكن إلى أين؟. لقد باع نفسه لابيعة الدكتور (فاوست) لمفيستو وإنما لشيطان مريد آخر .. هبة مجانية ! فلا هو بمنصرف للأدب فيعمل له ولا بمنقطع للبحث العلمي فيغرق فيه ولا بأهل للسياسة فيركض وراءها ولا هو بذي إمكانيات فنية فيرتاح إلى نعمها أو جحيمها . أنا أعرف أن من خصاله السيئة ، الاخلاص . أهو يجهل مايريد فلا يستطيع أن يقول هذه سبيلي ! أم تراه يعمل ليهرب .. وليهرب من مأساة يضم عليها جلده ولا سبيل إلى قتلها إلا بخدر الهرب ؟ لعلي اسأله ذات يوم أن يعترف وإن كنت أعلم أنه لن يجيب .. لا كبراً ولكن ضناً .. بالتي في قلبه !

وعرفته محبا للاطلاع . كأن له ثأراً لدى المعرفة او سراً صميمياً في كل كتاب!.. ولكنه لايؤمن بالمعرفة ولا بالكتاب ولا يستطيع ان يدعى لرأي من آرائه أنه صحيح كما لايستطيع أن يدعى أنه فاسد. ويفسح لوجهات النظر الاخرى من المكان في نفسه ما يجعله يؤمن دوماً انه على مسافة واحدة من الخطأ والصواب .. وترهقني « ريبيته » أحيانا كثيرة ؛ وتملؤني حسرة ونقمة .. ولكنه يرتاح اليها فيسمح مثلاً لمهنته أن تطغي على مايكتب. ويسمح لقلمه أن يختبىء وراء ذلك الرعيل المرهق من المفكرين والمهرجين . وهو من سخف الريب والجحود بحيث يظن الناس جميعاً انه في اعظم درجات الايمان ! ما هو بالمتشائم أبداً ولكنه يتمتع بحرقة او براحة إله نيتشه الذي

تستوي عنده جميع الحالات .

وعرفته أخيراً كلفا بالحياة يدرك أنها الثروة الأولى والأخيرة ويشتهيها - كما يقول - قصيرة غنية . ولكنه لا يعرف كيف يمسك العصا من طرفها الصحيح فتراه يعمى عن الحيـــاة وهي فوارة كينابيع الفردوس في دمـه ومن حوله وقد تتعرى له تتعرى له تعري جنيات الغاب لبوذا فيشيح عنهـــا كأطفال الرهبنات الاغرار في الثياب السود . كأنما هنالـــك شرطة روحية أو لعنة تدفعه في الطريق الآخر ؛ طريق الحرمان .

وإياك تصدق زهده الثعلبي فما حفي في طريق الله إلا لأنه لم يستطع أن يكون احد تلاميذ الشيطان !

لقد عرفته كثيراً، هذا الصديق - العدو، وعرفته للدرجة التي أخشى معها أن اكون جهلته .. أليست شدة القرب بحجاب ؟ لكني واثق على الاقل من شيء واحد هو أنه يتمنى على أصدقائه أن يدعوه على الارض ، على هـذا الحمأ المسنون الذي يتغذى منه .. مع بقية ديدان هذا الكوكب ؟ أم تراهم يضنون عليه بهذه المنة ؟.

شاكر مصطفى

- سألني :

لمن تكتب ؟

... ظل هذا السؤال . منذ وضعتني امامه ، ماثلاً في جبيني لا يبرح ، كشبح الخطيئة ، أو نظرة عتب من حبيب ! ترى حقاً ، لمن ولماذا اكتب ؟ ما سبق ان وقفت ، ولا سبق ان ربطت جماحي ، إلى هذا السؤال . كنت اشعر به في غموض دون ان احوله كلمات . وقد بقي ضباباً ابكم في خاطري حتى زحف كلمه على الورق فاذا له من الرعب والقسوة ما لتكشيرة

الجماجم ! كنت اكره ان اقيد نفسي بدرب ؟ او اضرب من حولي إطاراً يحرمني متعة الانطلاق العفوي ومد اللسان وراء كل حد ؟ .. قد يكون ذلك فإني اعرف كرهي للدرب المرسوم وللمادة القانونية العبوس وللقانون الرياضي الذي لا يلهو بعض اللهو ، بل وللقدر نفسه لمجرد انه مسطور في اللوح المحفوظ ! ولعلي لهذا السبب شعرت للسؤال بهزة ؛« كما انتفض العصفور بلله القطر » !

أما وقد شئت ان تكون ـ برغمي ـ كاهن اعترافي فساعترف ! إني اعتقد اولاً ان الكتابة حاجة إنسانية صميمة . وانا ككل ابناء القبيل المطرود من الجنة ، مولع بهذه اللعبة المزدوجة التي تسمح للذات بالانطلاق من سجنها . في الوقت الذي تحمل فيه الكون الاوسع ، بالمقابل إليها : لعبة التعبير فالانسان ثرثار منذ كان . ولعله لهذا افرغ ذاته من القديم القديم ، في الكلمة ، يلتقي فيها من حوله . وابتكر الحرف المكتوب يثرثر به مع الاجيال التي تأتي بعده ... ولينتحر الزمن ! حتى الصمت الانساني هو نوع من الكلام ايضاً وله معناه »ولهذا لا تقول عن الاخرس انه سكت » !

وما من احد إلا ولديه ما يقوله . على ان التعبير ، إذا كان امراً عفويا في الاصل . فإن الكتابة ـ ولا سيما الكتابة الفنية ـ عمل إرادي ما اضناه ! والقلائل الذين يملكون قدره التعبير الرفيع هم الذين يكتبون فقط . انت لا تكتب لانك

قررت ان تفعل ولكن لانك تتمكن من ذلك . فالشعور بالحاجة ـ وهو امر مشاع ـ لا يكفي ولا بد من توفر القدرة على الانتقال من هذه الحاجة الى الكلمة على الورق !

وإذا كان بناء جسر يعني إعطاء الطبيعة معنىً إنسانياً وكان شق درب إلى القمة وصوغ لحن من سديم الاصوات وابتكار آلة من الصخر صوراً من السمو الانساني ، فالكتابة ، بتعبيرها عن الفكر ، في مفهومه الواسع ، هي التي تعطي الانسان كل معناه ؟

وأنا من ناحية ثانية ، احيا ما اكتب ، سواءً كان لظى أم هناءة حالم ، أم ثمرة محرمة

أفي هذا طيفٌ من تبجح ؟ اوجز ان تنسى ذلك ! فالكتابة عندي قضية ... قضيتي ! ما اكتب هو أنا ، بكل ما قد يكون في من لونٍ ونشوة وسقم ومرارة . . بل ومن تناقض أيضاً ! وإذا كنت قلما ارضى عما اكتب ، فلأني احاول ما استطعت ان ابقى مخلصا لنفسي ، الاخلاص العنيف المرعب ! وقد اشتم الكلمة لانها اعجز من ان تغرف كل ما اريد من اعماقي !

ولا فرق ، بعد ، في ميزاني بين من يحبس قلمه في البرج العاجي ومن يلقمه مرارة الاكواخ وجوع الشارع ! بين من يجتر اوهامه الفردية ومن يجرح لهاته بنداء الخبز والنضال ! إن (الالتزام) الوحيد الذي افهمه هو الاخلاص للنفس ! وإذا

كنت اخترت ، لنفسي ، الحرف المناضل ، الحرف الذي يثور ، ويكافح ، ويمنح ، فلأن هذا طريق اخلاصي . هذه الايدي المعروقة والوجوه الشاحبة ، في بلادي ، من ذا يستطيع ان يفكر امامها بشيء آخر ؟!

وأنا ، من ناحية ثالثة وإن تمثلت الأخرين ، من خلال التفكير والكلمات ، إنما أكتب لأنقل غير الواضح في نفسي إلى الوضوح والنور . لأكتشف أرضي وحدودي ، لأزيل الغموض والضباب في أعماقي إن الزهرة لاتتحدد أوصافها إلا بعد أن تتفتح ! وهكذا اكتب واعرف ان الكلمة التي تحررني هي في الوقت نفسه قيدي . والحروف التي تجمع شتاتي هي ، نفسها ، الصوى والحدود في سديمي فكل كلمة ايضاً تخم . ولكن كل كلمة ايضا نصرٌ على العدم ! !

وقد تغريني هذه الوجوه الصامتة من حولي ، كالأقنعة ، بالنفوذ إلى ما وراءها . وقد يشوقني ان اكتشف نقاط التقائي بها ، لأشعر بالشمول الروحي الواسع ولكني أظلُّ مع ذلك مقيداً في حدود ذاتي . ولهذا فإني لست اعلم « لمن » اكتب !

إني اتبين هذا الـ « من » بعد ان اكتب . العمل نفسه يحدد لي الطريق والغاية وقد اكتب لكل الناس وليس لأحد . !

وما يهمني هو فقط ان تجد كلمتي روحاً تتجاوب معها لتبدأ .. المشكلة ! وإنما تبدأ المشكلة حين يمد الصديق يده للصديق ويقول له : سر معي سر معي . ! إنما نحن غريبان !..

نحو أدب جديد

في هذا العنوان كثير من الدعوى والغرور . وأي غرور اكبر من ان ازعم لنفسي قوة العمالقة فارسم الطريق الوعر الذي نريده إلى أدب جديد ؟ وانا اعرف ان آخر ما يخضع له الأدب هو قيود الارادة ؟ وأي دعوى اعرض من اصطنع عيون انبياء بني اسرائيل فاعين قبل الزمن ملامح أدب الغد ؟ هذا إلى اني لا احب لنفسي عمل بعض المهرجين الذين يمشون في

مقدمة الموكب يصفرون ويزعقون ليفسحوا الطريق للقادمين الجدد .

على انهم ارادوني ان احمل شفتي (شق) أو (سطيح) أو كاهنة معبد دلف لأقول لهم ما لست ادري شيئاً صريحاً واضحاً عنه ، على انه آت لا محالة ! .. ووا خجلة الادب والمنطق المزوق إن جاء مخالفاً لما قد اقوله عنه ، ولما ارسمه له من مجار وملامح . وهل يستطيع الغارق في التيار ان يحكم أيان المصير ؟ وهل في وسع الشاة المنعزلة ان تفضح نوايا راعي القطيع ؟

وعلى هذا فلعلكم تسامحونني إذا اسمعتكم الآن رأيا فطيراً ما انضجه استقراء او تجربة ، او استنتاجا شخصياً لعب به الهوى فاخرجه عن الجادة . او تمنيات لها تحدي النسر للافق وليس لها جناحه القوي العنيد !

وقد يكون من المنطق ، لحسن عرض المشكلة ، ان نتساءل اولاً :

هل هناك حاجة لأدب جديد ؟

إنكم تنتظرون بالطبع ان اجيب بالايجاب . لا اعرف هذا على طريقة ذلك الذي تنبأ فلما سأله الخليفة ما معجزتك قال: إني اعرف ما في نفسك فسأله : وماذا في نفسي اجاب : في نفسك اني كذاب ! لا ! ولكن عنوان الحديث كاف ليوحي إليكم بذلك . ولقد جئتم انتم وفي انفسكم صورتي كمنجم !

ولكني في الواقع لا أؤمن بهذا مطلقاً ولعلي اكثر من ذلك اعتبر هذا السؤال غير ذي موضوع - على حد قول زملائنا المحامين - ! فالأدب عندي ككل شيء حي في ازمة خلق مستمرة ابداً مبدعة ابداً. وفيه ما في الحياة نفسها من توق كياني - لا ادري بالطبع كنهه ولا مداه ولا عوامله - ولكنه توق إلى التجدد المستمر المبدع. ففي كل لحظة خفقة جديدة ومعنى مبتكر. وكم ابغض التشاؤم والعقم في مثل قول القائل: «ما ترك الأول الآخر شيئاً» و«هل غادر الشعراء من متردم!» فالادب الحقيقي كالحياة في تجدد خلاق حتى حين يكرر نفسه، كهذا الفجر الذي هو دوماً قديم جديد!

وكما تضيف اللحظة الراكضة وشعاع الشمس وتربة الحقل بعض الرواء او بعض الذبول إلى الزنبقة وتمشي بها في عرس أو جنازة إلى المصير كذلك تأتلف العوامل المختلفة على دفع الفن والأدب في الطريق المبدعة المتجددة نحو.. نحو ماذا يا ترى؟

لا يهمنا كثيراً ان نحدد المصير ما دمنا نعرف اننا نسير وانه لا مجال للرجعة. وإذا صور سارتر في (ويس - كلو) الجحيم على انه المكان الذي تستحيل فيه الخطوة إلى الوراء. فانا اعتقد بالعكس ان هذا هو الجنة: جنة الحياة وبالتالي جنة الفن والأدب التي تفعم كل لحظة بجديد والتي هي ابداً في تجدد خلاق!

ولعلي اضيف هنا انه لا علاقة لهذا الايمان بالمسير وبالتطور،

مع فكرة التقدم والطريق الصاعدة . فلست اجزم ان جديد الادب والفن هو بالضرورة خير من قديمه او انه خطوة إلى أمام أو إلى فوق .. إلى احسن أو إلى أسوأ .. إنها خطوة جديدة وكفى وهي لهذا السبب جديرة بالحياة .

ثم ان القيم الأدبية ، ما كانت يوماً ما نهائية إلا في أعين خالقيها انفسهم وفي اعين العبيد من خدم الموكب الذين لا تستطيع انظارهم تحدى تلك القيم .

ليس هناك من مذهب في الفن شرب مع آلهة اليونان «من كأس كان مزاجها كافوراً» فهو خالد الشباب يتحدى القدر والهرم . وليس ثمة من طريقة في الادب يتوقف عندها الزمن وقوف الشمس ليوشع او وقوف الهوى بأبي الشيص العاشق :

وقف الهوى بي حيث انت فليس لي
متأخر عنه ولا متقدم !!

ومن عادتي ان استريح الى هذا المفهوم الحي في الادب لانه يضع لي الادب حيث يجب ان يوضع من تيار الحياة الدافق ويربطه بالمصير الانساني ثم انه يفتح امامي مجال التفاؤل والايمان بالخصب الدائم ، كما انه يفسر لي الصراع الدائم بين ما يدعونه بالقديم والجديد والكلاسيكية والابداعية والتقليدية والتجدد والرجعية والتقدمية .. يفسره على انه صراع إبداع حتمي ، ولكنه يحيل جمرة ذلك الصراع الى نار ابراهيم ، لاني اعرف ان الصراع بين ما كان وما سيكون ، دليل من ادلة الحياة

وشرط من شروط البقاء .. ولعلي لهذا اتقبل في نوع من الثقة الهازئة محاولات القديم الذي يريد ان يفرض قوالبه الفارغة وهو لا بد ميت والحديث الذي يدافع عن نفسه والنصر لملك يمينه .

أتراني اوضحت لماذا لا ارى من مجال للبحث في الحاجة او عدم الحاجة لادب جديد ؟

إن الناس يتحدثون اليوم في الشام وفي كل بلد عربي عما يسمونه ازمة الادب ! يكتبون عندنا وفي لبنان ويسألون كبار القوم في مصر . ولا مناص من الاعتراف بوجود ازمة في الادب ! ولا اريد ان اذكر ان هذا الامر كان موضوع بحث بين اقطاب الفكر العالمي في البندقية منذ امد قريب ، فاني اعتقد ان لا علاقة ابداً بين ازمة الادب العالمي اليوم وازمة الادب في الشرق العربي ولكني اريد الا اخرج من حديثي من هذه البلاد التي تتغذى وتنتج بالاحرف العربية .

واستطيع ان ابدأ من نقطة نتفق جميعاً فيها ، وهي ان هناك في العالم العربي أدبا ، ولكنا نشعر جميعا ايضا انه ليس بالادب الذي نريد وليس بالادب الذي نشتهي ان يكون. ثمة شعور مبهم فينا كاطياف الغابة في الغسق ، يشيربان ثمة قمما وراء الافق ودروبا على النجوم تدعونا وتنتظرنا هناك . نحن على موعد معها ولكن الطريق اليها ملفقة بعتمة القبور !

إنا نشعر ان ثمة نقصا او نواقص في تكوين ادبنا الحديث

وبان ثمة تطلعا عاما إلى الوان اخرى فيه ، وإلى نماذج اكثر قربا من قلوبنا واعمق صلة بهذه الراحة الناعمة في نفوسنا والتي يسمونها بالحس البديعي . اعترف بكل هذا ولكني إذا حللته وجدته ينسجم لحد كبير مع واقع الحياة العربية وطبيعة الطور التاريخي الذي يمر به الشرق العربي اليوم :

فلقد غزانا الفكر الغربي غزوا كان اسرع من قدرتنا على الانسجام معه . وإذا كان المذياع يصدح اليوم في صحرائنا دون ان يفهم البدوي من تركيبه الدقيق سوى عرك اذنه فكذلك الفكر العربي اليوم رغم نهمه وتطلعه ما يزال طفلا يدرج ويلثغ وكذلك الادب العربي الحديث إنه :

١ — يتلمس طريقه تلمسا بين المذاهب الادبية الغربية التي تتقاذفه دون ان يكون لأي منها جذر في الارض العربية . إنه اشبه بقضاة الانكليز في الشعور المستعارة ! ذلك ان المجتمع العربي لم يع بعد كيانه ولم يكون بعد شخصيته التكوين الكامل . أليس هذا امر ما لدينا من مذاهب سريالية ورمزية وغيرها ؟ هذا إذا نسينا ان الفكر الغربي قد قذف الينا بانواع أدبية جديدة ما نزال امامها في دهشة الجديد وحذر المحاولة الاولى (كالقصة والمسرحية) .

٢ — ادبنا الحديث لم ينفصل بعد عن الماضي في التعبير وان انفصل عنه في الزمان والفكر . وهكذا عاشت القوالب اللفظية فيه اكثر مما يجب ان تعيش ، ظهر كتاب الاسلوب

(كالمنفلوطي والزيات واحمد امين) بينما لم تنضج الفكرة بعد لتخلق القالب الفني الملائم لها .

٣ - لا يستند أدبنا الحديث الى مجتمع غني خصب الحياة. انه مجتمع قلق مريض هذا الذي يغذي الأدب الحديث . وما تزال اطياف السبات ترتق على عينيه : فلا بطولة في الحكم ولا علم رائع ولا اقتصاد يهز الدنيا ولا فنون آلهية او نصف آلهية ولا .. أدب أيضاً .

٤ – أدباؤنا لا يصدرون في الذي يكتبون عن نزعة صميمة في الابداع وعن نداء الحياة الملح . لست اقصد من هـذا خرافة الانعزالية والبرج العاجي . فالمجتمع يلاحق المبدع حتى زاوية الصومعة ، ولكني اقصد انهم بعيدون عن التجربة الحية وعن المعاناة والخصب الذاتي ، بعيدون عن الثقافة الواسعة التي لا تتغذى بالكتاب فحسب ، ولكن بالظلال والاريج الحي واللون الراعش وباللحن كخيط من النشوة يقيد الخافق بين الضلوع .

أحسبني في هذا التحليل ألقى بالماء البارد على حماس الناقمين ، وأمد بلساني للمتشائمين من العقم ، واقف في صف الجبرية الادبية ضد النضال وضد دياكتيك الحياة !

لست إلى شيء من ذلك قصدت ، ولا اعتقد ان تحليل الاسباب قد يشكل عذراً أو مبرراً للفقر او ان القدر ، أيا كان ذلك القدر ، يمنع من اعنف النضال !

على أني أردت فقط ان اربط ما بين الحياة العربية الحديثة والادب ، واردت ان اقول انه منها وانها منه . وإذا كانت في تطور فهو مثلها في تطور ايضاً وإذا كان الادب في ازمة فازمته وجه من وجوه ازمة التكون الحديث في المجتمع العربي وإذا ازدادت الصيحة وكثر الحديث عن ازمة الادب اليوم فان ذلك لم يكن واضحا منذ سنين معدودة ، لان الانقلاب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري الذي يهز الشرق العربي لم يكن واضح القوة قبل سنين .

أأستطيع بعد ان اقول : ان الادب العربي الحديث سائر من نفسه وبنفسه الى عالم جديد ؟ وان الازمة القائمة ما هي إلا ازمة شعور كآلام المبدع حين يبدأ القلم بالمسير على ورقته ؟ أعيذ نفسي من ان اتفاءل هذا التفاؤل العريض وارى — على طريقة دون كيشوت — اشباح المحاربين العمالقة حيث لا يوجد سوى اجنحة الطواحين ! ولكني لا استطيع ان ادير وجهي الى الوراء والى الظلمة وامنع نفسي من التطلع والامل . من عادتي ان لا اقول ما تعود ذلك العبدان يقول لمولاه من ملوك الشرق الاقدمين كلما مدت المائدة :

— تذكر يا مولاي انك لا بد ان تموت . بل اقول تذكر يا مولاي انه لا بد ان يوجد غيرك . والشيئان واحد ولكن الفرق بينهما هو ، قدر الفرق بين من يقول عن نصف كأس الماء إنها مملوءة الى نصفها او فارغة الى نصفها .

على هذا النحو أؤمن بان الادب العربي الحديث لا بد متطور مع تطور الحياة العربية . ولكني أؤمن في الوقت نفسه ان هذا التطور لا يأتي دون عمل .. ودون اعصاب تهتز ، ودون دموع ودم ، ودون رقصة وضحكة ملء الصدر ايضاً!

ويرن في أذني هنا عنوان حديثي : « نحو ادب جديد » ، فاجدني ما زلت اهرب منه او اليه ، اجدني أحوم ثم احوم دون ان تسعفني الجرأة باقتحام الغد او التغلغل منه في صدر عرافة كاهنة !

ولكني على كل حال لا اعدم الامنية . لا اعدم ان اسجل ما اريد للادب الجديد المقبل من مصير وليس من ضير على ما اعتقد ان نحن داعبنا ادب الغد بالاماني كما تداعب الأم وليدها باحلام المستقبل . أود لذلك الادب :

١ ـ ان يكون ابن العصر المقبل فانا اعلم نفسي بغض القوالب المتحجرة من الماضي وبغض اساليبه وطرقه واصم اذني عن ندائه « انه اشد اغراء من السيرنيات التي جعلت تدعو اوديسيوس وهو عائد في البحر إلى وطنه وإلى حبيبته ، تدعوه بغنائها العذب الحنون ان يقف عند جزرها ويتجمد على رمل الشاطىء كالآلاف ممن سبقوه . اعلم نفسي كره المتاحف والمكاتب واخشى دوماً من دبيب القبور الى الاحياء ، ومن ايدي المومياء الجافة ان تمسك بخناق الزهرات الجديدة الحية .. لنجرأ كما قال مرة اندره بريتون « على خلق المجهول الذي

ليس إلي تسميته سبيل » يجب ان نستند إلى الماضي ، يجب ان نقرأه وما من حركة صحيحة تقـــوم دون جذور ونسغ . ولكن من السخف ان نقرأ الكتاب الكبار كي نحذو حذوهم وانما يجب ان نكملهم . لانريد من الاديب المقبل ان يكتب كتاب «البيان والتبيين» أو قصيدة أخرى لأبي تمام ولا أن يبدع « فاوست » او قطعة اشكسبير لسنا بحاجة الى جرير وجاحظ ومتنبي ومعري ولا الى شيلر وابسن وتولستوي انهم موجودون على رفوف مكاتبنا بل نريد الادب المتكون من هـذه القمم ومن العصر الذي نحيا فيه معا ! « كن من عصرك لا من عصري » هذه هي الوصية الذهبية التي يجب أن نكتبها عـلى كل كتاب من التراث الادبي ! .

ولقد يضطر الادب العربي الجديد إلى الدخول في الصراع العالمي للمذاهب الادبية ، لقـــد يضطر ان يقول كلمته في السريالية والوجودية والشيوعية . لقد يضطر .. فذلك لامناص منه . ولكني لا أعرف ماذا ستكون تلك الكلمة ! وليس في وسعي تحديدها لأن أديب الغد العربي هو الذي سيقولها !

٢) أتمنى للأدب الجديد ان يكون حراً فانا اكره للادب ان يقيد بمذهب او رسالة محدودة ، ان رسالة الأدب أن يوجد فحسب ، ومهمة الاديب ان يخلق أيا كان ذلـك الخلق . اما تلك الخصومة بـــين نفعية الفن ولا نفعيته وبين تقيد الاديب وحريته فخصومـة تخبط في الهواء .. إن للأديب ان يضاعف

الحياة بخلق عالم آخر كما فعل ستاندال وبودلير أو أن يكملها على طريقة روسو وغوركي ، له ان يقدم للناس الراحة واللذة وسط تيار الحياة الجافة مثل فلوبير وأوسكار وايلد .. وله ان يستعبده التطهير والتوجيه الخلقي على منوال غوته وجيد وبرناردشو ، كل ذلك واقع ويقع كل يوم والعالم يهدىء ابداً ضجيج رأسه في الادب كما يهدىء الملك لير جنونه في العاصفة. ولكن مامن مرة اشترط سلفاً على الاديب ان يكون آلة ووسيلة ؛ وعلى هذا فلا أدب أسود ولا احمر وليس ثمة ادب واقعي او خيالي ولكن هنالك أدب فقط . والكتابة كما قال سارتر هي في وقت واحد كشف العالم وطرحه لسخاء القارىء ولحريته في التلقي والابداع الجديد. وكل اثر أدبي نداء حر ، يتوجه إلى حرية الآخرين ، وإبداع حر لايتم إلا بإبداع يقابله من القارىء .. وإذ ذاك تنتهي مهمته !

يجب ألا تهمنا اخلاقية الادب ولا واقعيته ولكن بديعية الأدب ، ومقدار عمق التجربة الحية فيه « وليست الشخصيات المرسومة الحسنة القصد ـ كما قال زيمياتين ـ هي التي تنتج الادب بل المجانين والنساك والمارقون والحالمون والثائرون والمتشككون هؤلاء هم الذين ينتجون . وعلى عتبة هؤلاء تقف النفعية ويقف المنطق وتنتحر الاخلاق !

وأخيراً أرجو لأدبنا في الغد، ان يؤمن بالحياة الانسانية لا تلك الانسانية المريضة الخانعة العاطفية ، لا ولكن ان

يؤمن بالانسان ، وبالعمل الانساني ، قبـــل الايمان بالقدر ، (على طريقة الحضارات القديمة) ، او بالآله (على طريقة الحضارة الحديثة) او فرق الايمان بهما .

إن الفرد الانساني هو أثمن مافي الحياة ،لانه كنز غني حافل بالتجدد .والتعبير عن هذا الكنز وفتح الكوى لاتصاله بغيره واعطاء اللحظة العابرة سرمدية الوجود الانساني هي هدف الادب الحي .. وهنـــا تبرز قيمة التجربة وقيمة الفردية في الادب .. فسواء كانت التجربة خطيئةأو لعنة مخضلة بالدموع كتجربة اوسكار وايلد او فرلين او بحثاً عن المثل الأعلى او وسيلة للمعرفة وللحقيقة كما عند غوته .. فانها على كل حال تعبير عن وجودنا الانساني الحي ، إنها هي الدماء الحارة والاعصاب والمعاناة النفسية الراعشة . ثم سواء كانت الفردية نسجاً لعوالم الوهم او تنضيداً للياقوت الأزرق « كما يقـــول كيتس » او كانت نضالا لمثل أعـــلى أو نفحة كآبة ، فان الانسان فيها هو البداية .. إنه يعطي حياته بها معنى ، ويمنحها أوج قيمتها ! أما التجانس فمقبرة تسلب الفرد كل مافيه من عنفوان .

انا لم انسف بهذا كل الجسور التي تربط مابـــين الانتاج الادبي والواقع القومي .. لا فاني موقن ان اتصال الاديب العربي اتصالا عميقاً بالحياة سيجعل إنتاجه معبراً عن الانسانية العربية دون ان يفقد قيمته العالمية تماماً كما عـــبر طاغور عن

انسانية الهند ودوستويفسكي عن الانسانية الروسية. ألسنا ، في الواقع ننتظر أمثال هؤلاء ؟

* * *

وبعد فأنا أعلم انها أمنيات شخصية هذه الأماني كفقاعات الصابون ، أرجو ان لايفقأها الواقع .

واعلم انها لايمكن ان تنتقل من عالم الاماني والرفيف الى عالم الواقع القامي المناضل إلا بالعمل ، وإلا بتقدم جميع نواحي الحيـــاة العربية الحديثة .. « هناك شيء بسيط كما كان يقول ستاندال هو انه لكي نبدع شيئاً يجب ان نعمل . ان هذا كل مافينا من سر » إنا نحتاج في الواقع إلى مجتمع يحيا بدمه هـذه الاتجاهات ويعمل لها . نحتاج الى اديب جديد ! إن الله حـين خلق آدم لم يمد يده الى الفراغ ويخلق ، ولكن مدها إلى قبضة من الطين وقال : كن . فكان !

الطين النبيل

هذا العنوان ، (الطين النبيل) ، شكوا في سمعهم حين ذكرته وتأكدوا منه مرتين ، تهجوه حرفاً حرفاً قبل ان يثبتوه البطاقات . بلى ! اقول : الطين ، الوحل ، الحمأ المسنون ! قد تكون المفارقة الفنية هي التي دفعت الفكرة الى شفتي . ولكن لا تشفقوا على النبل ان يزحف الى الطين او ان يزحف الطين اليه . لا تخافوا جراحه ، فبعض من بعض قريب ، قريب .

واعترف اني اخذت بما القته الفكرة في خاطري من الخصب الملون ، حين تراءت وراء الطين يد الله تعجن الصلصال الاول ثم تنبسط ، كاليد التي صاغها (رودان) ، وبين راحتها والاصابع رعف من مخلوقات كاملة ونصف مكتملة وفي طريق التكوين والبصيص . وحين تراءت وراء النبل كل القيم ، قيم الاخلاق واقداس الدين ومثل الفكر ، تراءت كلها تحتضن ذلك الحمأ الآسن وترتديه .

اخذت بهذا كله وبما فيه من جذور عصية او خاشعة في ضلوعي فما استطعت فكاكا منه ولذلك اجدني مقوداً برغمي الى ان امحو (او ادفع على الاقل إلى العتمة) ما قد يكون عنوان « الطين النبيل » قد اوحى به اليكم من المعاني . لن اتحدث عن تراب الوطن مثلاً ، هذا الطين الذي شرب حتى ثمل من دمي ودم قومي . ولن اندفع في دروب الاخلاق فأقلص ، بالوعظ السخيف ، ما بين جباهكم والذقون ، ولن اروي لكم اخبار بعض بني الطين من المبدعين . ولن ابعث خيالي في افق قصصي اخلق انا اكوانه ونجومه ودوده قصة من القصص . بلى ! ساروي لكم قصة ولكنها منكم انتم ! وهي الملحمة الكبرى التي نسجتم طائعين او كارهين ، كل خيوطها . قصة الانسان ، وسأرويها كما افهمها ..

بدأت هذه القصة – كما لعلكم تذكرون – في الطين .. وسواء آمنا بايام التكوين الستة ام صدقنا فاجعة داروين ، فان

آدم والخلية الحية الاولى سواء في بدئها قصة الانسان من الحمأ . ويخيل إلي احياناً ان اللعنة التي تلاحق البشر منذ عهد الخطيئة الاولى والفردوس المفقود ، ما هي في واقعها إلا ذلك الاطار من الطين ، طين الارض الذي ضرب حول الانسان وحدد مدى يده وبصره . فهو لا يرى ما في السماء إلا من خلال الطين ولا يبني حضاراته إلا على الرمال ، ولا يقيم مفاهيمه الكبرى إلا في الوحل والتراب .

وتمر امامي هنا في عرض كعرض اعياد المساخر ، ملايين المجلدات التي تردي لي ولغيري تاريخ الناس واخبار الذاهبين الاولين ، وقصص الحضارات العلى واحوال الابطال الذين تركوا

... في الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء انمله العشر

فلا ارى في ذلك جميعه سوى صورة واحدة مكرورة : صورة هذا الحيوان الذي وقف على ساقيه ، ولكن . . . ما انفكت عيناه تبحثان عن الطعام في الارض ويداه تعملان على تكويم التراب اكواما يدعونها مدنا .. وليس بعد ذلك شيء سوى بعض اللغـــو الذي يدعونه فكراً واخلاقاً وفلسفة وعقائد وعلماً .

قد تروع هـــذه الصورة الجهمة بعض المؤمنين بالتقدم الانساني ، الذين يتصورون الانسانية صاعدة على سلم ، اقدامه في الارض وفروعه بصدر النجم مع الملأ الاعلى .

والبشر منذ كان البشر ، يحاولون الخلاص من الطين ، يرجون السمو عنه ، وخنق ذكراه في النفوس ، لهذا انحدروا باصل الانسان عن الجنة نفسها ، ولهذا ايضا كرهوا ذكر الحيوان فيه ؟! ولهذا ايضا وايضا آمنوا بالتقدم المستمر ؟ . . آمنوا بالعقل وثماره وبمجموعات الفضائل يشقون بها الدرب . . إلى ما فوق الانسان ، الى الله !

ولست أشك بدوري أن هـــذا الطين الذي رقصت فيه فيه الحياة ، ذات يوم ، وصقلت ، كاليد الفنانة الصناع خده وزوقت يوماً بعد يوم شفتيه وهذه الخطوط الحلوة من قامته ، وتلك التلافيف المعجزة في قلب دماغه .. هذا الطين مشروع ناجح للتسامي .. ألم يزده الكبر بالله حين نفض يديه منه فاذا به يصيح الصيحة التوراتية : هذا حسن !! ويكرر في القرآن : إنا خلقنا الانسان في أحسن تقويم !

على أني لا أدري أي رغبة مرة ، لها عين مغولي ، وقهقهة نيرون يوم الحريق تلح في قلب القيم عندي وتدأب على نحرها في الصميم . تنسيني الحياة ساعة اني طين حقير ثم ما ألبث ان أجدني كماء النافورة يرتفع ويرتفع ثم ينكفىء على نفسه فاذا هو على وجه الموجة فقاعات وشـــيء من زبد قليل .. واتعلق بالفكر واتأرجح معه ، أني تأرجح ، ثم اقفز إذا قفزت فاذا بي مازلت على الأرض . واصطنع كل الفضائل الاجتماعية وآلم لقوالبها التي تشوهني كما تشوه الاحذية الحديدية اقدام الصينيات ولكني

لا ألبث ان ارى وراءها الفراغ العتم ..

وتقفز الى خاطري هنا كل ضروب النبل التي يرتديها الانسان، سواء في هربه من الطين او في تعلقه بأذيال العقل والخير والسماء، فاذا شيء واحد يبقى منها في يدي ..

ماهو ياترى ؟ دعوني ابدأ الطريق من أولها وافحص ضروب النبل الانساني دعوني ابدأ بالرجوع إلى الطين بذكر ملاحنا (*) الطينية :

فنحن شئنا أم أبينا أولاً نعيش على الارض ونتغذى بالتراب . وهذا المسرح الذي يشاركنا فيه الدود الاعمى وشعاع الشمس المرتمي في الوادي ، والشوكة التافهة حقيقة قائمة. وليس بامكاننا ، كما انه ليس من مبرر، لان نهرب من هذه الحقيقة الى السماوات العلى، بل لعله من اسباب الغبطة الكبرى ان يجد المرء قبائل الزهر من حوله، واسراب القمارى، وان يذوب في سمفونية ألوان الشفق ويتذوق طعم الاغذية الارضية وسكرة العطر !

ونحن شئنا ام ابينا ، ثانياً ، نملك جسداً، مادة قائمة على شكل ونسق وتوازن دقيق . وهي حقيقة نحاول دوماً ان نتناساها فنطلع دوما الى عالم الروح والملائكة، ونرمي الجسد بكل معاني الانحطاط والبهيمية . واعترف اني في قرارة نفسي اغبط حظي في انني ذو جسد ولست روحاً فحسب « وانا أتساءل في

(*) بعض ما جاء في هذه الملامح مقتبس من اقوال الفيلسوف الصيني لين يو تانغ .

بعض الاحيان اي قصاص رهيب ذلك الذي يمكن ان ينزل بطيف او ملاك ، اذا ماحرم الجسد ! فهو يتطلع إلى جدول الماء الريان وليس له رجلان تسمحان له بالخوض فيه، وهو يرى إلى صحن من اللحم الشهي وليس له لسان يتذوق طعمه وهو يلمح الحلية وليس له صدر يزينه بها . وما اتعس حالنا لو رجعنا يوما إلى هذه الارض اطياناً لطيفة وتقدمنا في صمت الى مهج احفادنا فرأينا احدهم مستلقياً في فراشه وليس لنا أيد تلاطفه او أذرع تعانقه او صدور ينفذ اليهـــا دفؤه . ولا تجاويف مستديرة بين الخدود والمناكب يستطيع هو ان يسكن اليها ولا أذن نسمع بها صوته !! »

إنه لخليق بالروح ان تأسن ، ان تنتحر لو اصابها الركود التام، الهدوء المطلق .. الفراغ الاعمى . ان الحياة تكون حتما قد زايلتها !

ونحن شئنا ام ابينا ثالثاً نقوم على قوام حيواني . وهي حقيقة نستطيع (او لنقل يجب) ان نعترف بها برضى اذا نحن لم نشأ ان ننكر، في عناد مضحك عقيم، صحة النظرية الداروينية وحقائق البيولوجيا والكيمياء الحيوية . واي حس بالدعابة والسخر الرفيع يمكن ان يغمرنا حين نذكر انفسنا باننـا من نسل الانسان النياندرثالي او الهايد لبرغي او انسان جاوة .. بل ابناء القرود... الانسانية ! إنا اذ ذاك خليقون بان نضحك بعمق من اكبر مآسينا (فالكوميديا البشرية) لاتبلغ اوجها

في انفسنا الا حـــين نقرر قرديتنا النبيلة !! وأننا خلقنا على شكل القرد لا عـلى صورة الاله ! ومن العبث الذي لاطائل وراءه ان نتجمل بالاصبغة ونلتف بالاقمشة ونتصنع السمو الفكري لنثبت ان بيننا وبـــين الحيوان هوة لاسبيل إلى اجتيازها .

ونحن شئنا ام ابينا رابعاذوومعد..لامتلىء،كالبرميل الذي عاقبت الآلهة (بنات دانائيد) بملئه بالماء وهو لا قعر له .. وهـــذا الجوف الذي منحناه صدفة اوحسب خطة مرسومة ، « ترك طابعه العميق في التاريخ البشري واذا كان الكثيرون قد مكروا بالغريزة الجنسية، فـــانا لانعرف قديسا او بطلا استطاع ان يمكر بمعدته . فلازمتنا اليومية التي نكررها كل عدة ساعات: ماذا نأكل؟ والمؤتمرات الكبرى تعطل مناقشة أخطر المشاكل السياسية للاكل ! ولا شيء انجـع في كسب الناس من دعوتهم إلى مأدبة حافلة ! واقصر الطرق دون شك الى السلام هي تلك التي تمر بالمعدة ! ولعله من حسن الطالع ان غريزة الجوع لم تحط بمثل ما أحيطت بـــه الغريزة الجنسية من ضروب التحريم الديني والاجتماعي ولم تنبثق عنها بالتالي اي مشكلة اخلاقية او منقبية ! على ان الحياة قـد جربت تضخيم (الكروش) فوجدت،ذات يوم،حيوانات الكروش الضخمة ولكن هذه التجربة فشلت !! وانقرض ذلك النسل .

ونحن شئنا ام أبينا خامساً نجتر ايامنا مع ملايين عدة من

أشباهنا (تماثيل الطين) ، نأخذ ونعطي ونتجاوب ونصطدم ، ونقتل ونقهقه كقطعان المها وعصائب الكراكي . وليس من هذا الواقع ايضا . فمن سعادات الانسان العمقية أن يجد صديقاً يشاركه الفكاهه وفقيراً يمنحه الاحسان وعاملاً يهد له دون ان يعرفه الطريق ، وثغراً يقـــول له : احبك ! على أن هذه الاجتماعية تكلفنا غاليا فالنتيجة الطبيعية لاننا حيوانات وذوو اجساد أن يشجر الخلاف بيننا فنسويه على طريقة البهائم . والاسد في مملكة الحيوان هو دوماً على جادة الصواب .. ولقد كفت غرفة من غرف التعذيب لأن تقنع غاليله بمدى خطئه في القول بكروية الأرض ودورانها . ولو لم يكن ذا جسد فان بين هذه الملايين من البشر حوله لما كانت هنالك قوة تستطيع تحويله عن رأيه .. ومن حسن الحظ انا خلقنا ذوي السنة . وان الثرثره تستعمل لدينا عادة مع قبضة اليد في الاقناع ولعل اللسان كسلاح من ابرع مبتكرات الانسان .

ونحن شئنا أم أبينـــا سادساً ميتون ، « واحسب ان الديمقراطية كلها والشعر أجمعه والفلسفة باسرها إنما تنطلق من تلك الحقيقة » وديمقراطية الموت نادراً ماتكون محل نظر لدينا فلا بد يوماً من أن تزايل نبضة (الحياة) هذا الطين فاذا هو هامد لاحس فيه ولا شعر ولا همسة حب أو عاصف غضب ! لابد أن تهجر الحياة هذا الرداء المادي . والارض بهذا المعنى تبدو وكأنها مقبرة كبيرة ، كما يبدو الانسان بدوره ، وبما

يتغذى به من كائنات الارض ، قـــبراً سياراً !. والتفكير بالموت سبيل الشعر العميق .

وشكسبير (كالمعري والخيام) إنما برهن على شاعريته العميقة حين جعل هملت يتتبع رماد الاسكندر النبيل الى أن يجده .. سداداً لبرميل من الجعة !! ومن البديهيات التي نعلمها ان مراوغة الموت عبث ومن هنا كانت فكرة (الخلود) الفكرة التي تستحق وجودنا الانساني سحقاً والتي تستأثر وحدها بمعظم القيم والجهود الانسانية !.

واترك هذه الصفات الطينية التي تعلق بنا رغم هربنا منها لانظر في الميزة القابلة التي نحاول اللحاق بها ، فنفشل او نكاد: العقل .

ولعل ابرز ما نفخر به، نحن تماثيل الطين ، اننا ذوو ادمغة! والعقل ـ الذي نزعم انها تحويه ـ انبل نتاج تمخضت عنه الخليقة . وهو قول جدير ان يسلم به سواد الناس لاسيما حين ينظرون الى عقل كعقل اينشتاين او اديسون او عقول اولئك العلماء الذين اخضعوا ما لا يرى من الذر وما لا يطال من اشعة النجم . ولكني لا احسد نفسي ولا غيري على هذا العقل .. لا على طريقة المتنبي الذي رأى ان :

ذا العقل يشقى في النعيم بعقله
واخا الجهالة في الشقاوة ينعم

لا ! ولكن على نحو آخر فلو قد خلقنا كائنات عاقلة كل

العقل ، مخلوقات لا تعرف الاثم ولا الشذوذ ولا الضعف فما كان اتفه العالم إذن ... انا بذلك نفقد الكثير من فتنتنا كبشر . وانا بجانب الاثم الانساني لدرجة تجعل القديسين الذين لم يتردوا في الاثم أبداً غير محببين الى قلبي . نحن فاتنون بنزعاتنا وتقلبنا وحماقاتنا والوان عبثنا ومجوننا وتعرضاتنا وتعصبنا الديني وسهونا . ولو كانت حياتنا مقيسة بالدقة بمقاييس العقل ، معروفة المبدأ والنهاية ، فاي متعة يمكن ان تجد فيها ؟ وهل يتابع احدنا قراءة رواية خذلت شوق القارىء منذ صفحاتها الاولى فاعطته الحاقة ؟ وهل يلذ له الرهان والسباق وهو يعرف الجواد الرابح ؟ إن عالما لا تسمع فيه كل لحظة بملك تخلى عن عرشه في سبيل الحب ، وبهزيمة مكروب اعيا العيون ، واشتعال نار في بيدر ، وفضيحة في قلب ، وقميص يفر مع احدى الغانيات جدير به ان يكون ساحة احدى المقابر ! او مجتمعا من مجتمعات النمل او النحل يدور في دائرة الغريزة السرمدية !! اني اكاد اعتقد ان اشهر الرجال في التاريخ البشري هم اكثرهم ضحكا على العقل . هذا يوليوس قيصر ينسى امبراطورية كاملة امام عيني كليوباترا ! وهذا داوود الملك وحش تارة وكريم اخرى ، آثم يوما وكاتب لمزامير التوبة يوما آخر ! وهذا يسوع الناصري يعلن شكوكه وهو على الصليب ! وهذا غوته يحتفل في الكنيسة بزواجه وابنه من زوجته البالغ تسعة عشر عاما ، قائم الى جانبها !. ونحن ، هل نستطيع ان ننكر ، بيننا وبين

انفسنا على الاقل ، ان ٩٩ بالمئة من اعمالنا لا تمر بطريق العقل واننا نخجل كل الخجل لو واجهنا احد بالاعمال التي نقوم بها ونحن دون رقيب ؟! هذا الى ان العقل نفسه ، لو رددناه الى وظيفته الاولى لما كان اكثر من آلة لابتكار الآلات - كما لبرغسون - و ما كان اكبر وظيفة من خطم الخنزير . . كل عمله تلمس الطعام !!

واست هنا في مجال الدفاع اليائس عن النقائص الانسانيـــة ولكن هذه الخواطر تقودني الى الناحية الثانية مما ندعوه بالنبل الانساني : ناحية القيم الخلقية ، ولن احطمها بدورها فاطمئنوا ولكني ، لا اثق بها ! وتمر في خاطري قصة طويلة تلخص كل ما اريد قوله . . فماذا لو وقفنا عندها ؟ القصة هي « فيراتا » للكاتب النمسوي (تزفايغ) :

وفيراتا محارب رائع السهم في خدمة الملك راجبوتانا ، وقد ثار احد الولاة على الملك ، واستمال الناس بالمال ، واغرى الكهنة فحملوا اليه طائر البلشون المقدس ، شعار الملكية منذ الوف السنين ، وزحف على العاصمة ، ولم يجد الملك المرز أحوله سوى : فيراتا .

وشق البطل المحارب طريقه في الغابة الملبدة ، واستطاع بجرأته ومعرفته بالارض ان يأخذ الثائرين على غرة في غلس الليل ، فلم تلمع في الدجى غير السيـــوف ، واما الاعشاب والشجر ، فقد رويت بالدم . وقتل فيراتا بيده الوالي الثـــائر وانصاره في خيمته الكبرى !

وحين تبدت الشمس في الصباح كالجرح المشتعل . كانت الارض في غير حاجة الى حمرة الشفق ، إلا ان الاشعة وقعت منها على وجوه مسخها الألم ، وعيون شاخصة من الذعر وطاف فيراتا بين الجثث ، فاذا به ، ويا للهول! يصطدم بعينين ثابتتين تخرقان قلبه بنظرة جامدة كالرصاص ، انها جثة اخيه بين قتلى الثائرين !

وبينما كان جنون الرقص يستبد بالجنود في كل مكان حول طائر البلشون المقدس ، وهم يهتفون لفيراتا بلقب (لمعة السيف) كان القائد المنتصر يلقي بينه وبين الوجود بحجاب من الدمع الحار ثم يقوم فيأمر بايقاد النار وبنى المحرقة التي تلقى بها الجثث بين الطيوب !

وعاد الجيش المنتصر ، وفيما كانوا الجنود يجتازون الجسر الاعظم احتواهم العجب وهم يرون الى قائدهم يرفع سيفه كأنه يتهدد السماء ثم يرخي ذراعه به ، فاذا به يلتمع كالشهاب ، قبل ان يبتلعه التيار الأتي .

وخرج الملك للقائه يحمل له سيف القيادة العامة ، سيف أول ابطال راجبوتانا المحفوظ في خزائن المملكة منذ خمسه آلاف سنة وقد امتلأ قائمه بالجوهر مع التعاويذ ، ولكن فيراتا انحنى يلثم الرداء الملكي :

– هل لي ان استوهبك عارفة ؟

– طلبك مجاب قبل ان ترفع عينيك !

– اعد هذا السيف إلى مكانه، فلن احمل سيفاً بعد. لقد قتلت أخي!

وتلبدت عين الملك بالغضب وقال :

– لا استطيع ان استغني عن خدماتك ، وستكون إذن قاضي القضاة في مدخل قصري !

ومنذ ذلك الحين ، صار فيراتا يوزع العدالة في الناس ، وكم شهده الناس يسهر الليالي حتى الصباح مفكراً في وجه الحق وزنة الحكم ! إلا ان حكم الاعدام ما قفز إلى شفتيه قط حتى نسي الناس لقب لمعة السيف له ولقبوه : (منبع العدل) .

واتفق ذات يوم ان أتى اليه بشاب من سكان التلال الصخرية قتل احد عشر رجلا من اهل الفتاة التي احبها ومنعت عنه . وقد تكلم الشاب في حضرته بازدراء كبير . ومع هذا فقد حسب فيراتا حياة الانفس القتيلة ، وقضى بحبسه احد عشر عاماً وبجلده كل عام مائة جلدة ! وبينما كان الناس يقبلون اعتاب القاضي ، كان الشاب المتهم يسأله : « أهذا هو العدل ؟ ما مقياس عدالتك انت ؟ من الهب ظهرك بالسوط لتعرف ما هو الجلد ؟ وكيف تحصى السنين على اصابعك كأنها رقم عابر ؟ فهل ضمك السجن لتعرف ألم السجين ؟

ونظر فيراتا في عيني الشاب فاذا هما متحجرتان كالعينين اللتين تسمرتا في وجهه صباح المعركة .. ومضى عليه ذلك الليل ابيض اللحظات ، ولما كان الفجر ذهب يلثم طرف الرداء الملكي :

ـ ارجو مليكي المعظم ان يمنحني إجازة شهر عسى اعرف الحق الصحيح خلاله !

ـ ستفتقد مملكتي عدلك .. ومع ذلك فلك ماشئت .

وودع فيراتا اهله مساء ، وامر ان لا يسألوا عنه حتى يمر شهر كامل .

وفي منتصف الليل كان شبح اسود يخرج من دار القاضي الى السجن .. وفتح له السجان دهشاً ان يحضر قاضي القضاة في الليل اليه . ولكنه قاده مع ذلك الى حيث شاء .. الى الشاب السجين في الاعماق تحت القبة الصخرية وابواب البرنز . وقد صرف القاضي حارس السجن حين احتواهما الظلام الرطيب بعد ان اخذ منه مشعله . ونزل خمس طبقات من الادراج وضوء المشعل يثب في احشاء الظلام كالوحش المفترس حتى فتح زنزانة الشاب السجين .

اخبره انه ، يريد ان يختبر عدل احكامه وان يبرأ من الخطيئة . فهو يرجوه ان يعطيه ثيابه ويخرج من السجن بدلاً منه شهراً واحداً على ان يلزم خلاله الصمت ..

وخرج السجين بعد ان قص لحية فيراتا وشعره القضائي الطويل ، وركع امامه يبكي . وفي صباح اليوم التالي جلد فيراتا علانية دون ان يعرفه احد . وحين صب اول سوط على ظهره العاري اطلق صرخة حرى واطبق شفتيه على اسنانه المصطكة ، وفي الضربة السبعين غشي عليه وحمل بعيداً

كالوحش الميت .

بعد ايام حين ثاب اليه رشده ، والتأمت جراحه ، كان عالم جديد يتكشف له .. لم يعد يشعر بمرور الزمن الا من رشح الماء بسقف الصخرة ، ولكنه كان يزداد صفاء يوماً بعد يوم ، حتى لقد كاد يحس في اعماق ذاته جذور الارض الصخرية السوداء وهمس الفلك الدوار ! وفي اليوم الثلاثين ، سمعت جلبة عظيمة خارج السجن ، ووطئت لاول مرة قدما الملك درجات السجن الدنيا . ودخل العاهل الكبير على فيراتا يعانقه :

ـ لقد سمعت بصنيعك ، انه عمل ما سجله احد من آبائنا ايها الرجل الصالح .

على ان فيراتا كان يشكو ألم عينيه من مواجهة الضوء فجأة فوقف كالشارب الثمل يسنده الخادم وقال :

ـ لقد دعوتني الرجل الصالح ، ولكني اعلم الآن ان من يصدر حكما على غيره يظلم .. وفي سجونك كائنات انسانية كثيرة تذبل باحكام اصدرتها أنا .. ان مقابلة الشر بالشر قانون ظالم ، فاطلق سراح السجناء ، إن أنينهم ليملأ نفسي خجلاً !

وقال الملك : ستجلس للاحكام بعد اليوم في صدر قصري .

ـ رحماك يا سيدي اصبحت لا اصلح للقضاء !

ـ ستكون إذن مستشاري .

وعاد فيراتا يستلم ركبة الملك :

ـ اقلني يا مليكي . إن السلطة تغري بالعمل . ولقد

اضحيت اخشى الظلم فان شئت ان انأى عن الخطيئة فدعني اعش في داري هادئاً .

ـ لك إذا شئت ذلك . وانه لفخر لمملكتي ان يعيش في حدودها رجل بريء من الخطيئة مثلك !

وقضى فيراتا ست سنوات في عزلة داره يصلي ويقرأ الحكمة ويواسي المعذبين في الارض ، واصبح الناس لا يلقبونه بلمعة السيف او نبع العدالة ولكن صار الآن (ساحة المشورة الصالحة) ... وذات مساء سمع صيحات عنيفة ووقع سياط في مقره ، فوثب ليرى احد اولاده يعاقب الخدم ، وكانت السياط تنهش من دم الخادم ولحمه ، وشخصت عينا الضحية إلى وجه فيراتا فاذا بالعينين المتحجرتين تطلان منهما !

اسرع فيراتا فامسك بالسوط وعرف ان العبد كان يتأخر بجلب الماء من الينبوع الصخري إلى المنزل ويهمل في زراعة حقل الرز الواسع . فلما عوقب عدة مرات هرب وعاد به اولاد فيراتا مجروراً بالحبال دامي القدمين والاكتاف والوجه .

كان الخادم ما يزال ينظر الى فيراتا بعينين كعيني وحش ينتظر الضربة القاضية من السفاح . وقال فيراتا :

ـ اطلقوا الرجل فقد كفر عن خطيئته !

ولكن العينين بقيتا تلاحقان فيراتا الى حجرته وهناك فكر :

بأي حق اسلب أنا واولادي حرية هذا العبد . وإذا لم يكن من حقي ان اسجن احداً سنة او يوما فكيف اسجن

العبد في حدود ارادتي الخاصة ؟ وباي حق آكل ما يزرع ؟ واشرب ما يتعب بنضحه وحمله من الماء ؟ ولماذا اعيش كالعلقة الحقيرة على دمه ؟

وسجد فيراتا شكراً لله فلما رفع رأسه كان رأيه قد استقر على امر : سيطلق كل عبيده !. ولما اجتمع أولاده في الصباح حول المائدة فاتحهم بقراره فقال أحدهم :

ـ أهذه هي حكمتك ؟ لقد جزيت المسيء بالمثوبة بدل العقوبة ، فكيف نستطيع ان نضبط خدمنا الكثيرين بعد؟.

وقال الثاني ـ انـــك توهن سلطة القانون . ان هؤلاء عبيدنا، كما ان الارض ملكنا بمـــا عليها من فاكهة ودار فهل نلغي الملك .؟

وقال الثالث ـ ومن يسقي حقولنا حتى لا يتلف الرز؟ ومن يسوق الماشية ؟ وهل نصبح خدماً من اجل نزواتك وانت لم تعمل عملاً بيدك طول حياتك ؟! ألم يتصبب عرق الآخرين ليجدلوا لك فراش الفش الذي تستلقي عليه؟ أو لم يروح عليك ثلاثة من الخدم كل يوم بالمراوح ؟ وتريد ان تحرمنا هـذا الذي قضيت فيه حياتك ؟! هل تريد ايضا ان نرفع النـــير عن اعناق الثيران الى اعناقنا ؟..

وصمت الأب طويلا ليقول : لن أصوغ مصير اي انسان بعد . وليس لنا من الله سوى حق واحد هو حق الحياة وقد احسنتم صنعا بتحذيري من امر مازلت في غفلة عنه :

ان الرجل الصالح لايقبل ان يكون امثاله من الناس بهائم له ! وعليه ان يعمل لمعيشته بيده .. آمركم ان تطلقوا سراح جميع العبيد !

وقال احد الاولاد:

ـ أنت لاتقبل ان تصدر أوامرك إلى أحد خدمك خوفاً من الخطيئة فكيف تأمرنا وتتدخل في حياتنا وتخط مصيرنا ؟!

وأطرق الأب الشيخ طويلاً ثم رفع رأسه وقال :

ـ لقد علمتموني مالم اكن اعلم . لن اضغط عليكم بحال.. خذوا كل شـــيء.. فاني سائر الى حيث استطيع العيش بدون خطيئة ! !

وحين جن الليل كان فيراتا قد صار بعيداً عن المدينة يجرر عكازه .وجراب التسول على كتفه فيه بعض الفاكهة وبعض كتب الحكمة .. واجتاز النهر العظيم إلى الغابة . وأوغل فيها اياماً طويلة حتى انتهى إلى اصـــل شجرة من اشجار الدوح العظيم قضى خمسة ايام وهو يبني حولها الحجارة ليجعل منها كوخ حياته!

ولم يكن قد مضى زمن طويل حين الفت الطير هـــذا الوحش الجديـــد، كما هرعت اليه بعض القردة .. وعدد من الوحوش الصغيرة والببغاوات المرقشة وانقضت سنتان واذا بأحد الصيادين يشهد ذات يوم مشهداً عجباً في الغابة .. يشهد فيراتا كالقديس الصغير بـين اصناف الوحش والطير . ويخبر الصياد زوجته وتخبر الزوجة جارتها وتخبر القرية المدينة ويزحف

الخبر إلى اسماع الملك فيأتي بزورق عليه ثمانية وعشرون مجدافا يقاومون تيار النهر الى اعاليه وينزل على الطنافس لدى حيث كوخ فيراتا :

ـ جئت لأرى معجزة الصلاح النادرة . لعلي اتعلم كيف يكون الصلاح !

ـ من اعتزل الناس لم يعلم سوى نفسه ياسيدي . وحكمة الرجل المعتزل تختلف عن حكمة الدنيا . وقانون التأمل ليس قانون العمل !

ـ هل لك من امنية أحققها لك ؟.

ـ لم يعد لي شيء أتمناه لان كل ماعلى وجه الارض ملكي .

وعاد زورق الملك منحدراً في النهر بينما ذاعت شهرة فيراتا في الآفاق كما يطير الصقر الابيض، واطلق عليه في تلك الآونة اللقب الرابع للفضيلة فاصبح يسمى (نجم العزلة) وصار القضاة في كل مكان يختمون احكامهم بقولهم « لعل كلماتي تكون عادلة ككلمات فيراتا . الذي يحيا حياته كلهـــا لله . ويعرف الحكمة جميعاً » !

وسرعان ما اصبح كـــوخ فيراتا قرية اجتمع اليها كل صاحب تقوى واطلق الناس عليها اسم مأوى الاتقياء فلم يكن يمر بها صياد لئلا يزعج عليها الهدوء العميق والسلم الروحي الخالد.

على ان فيراتا كان يتجول في الغابة ذات يوم . فوجد حطاباً مريضا اضطر ان يساعده حتى يصل القريـة القريبة .. وهناك

سرت في الدروب موجة من الرقة والبشر وخرجت القرية كلها تتلمس البركة برؤية (نجم العزلة) لكن فيراتا في نهاية الأكواخ شهد امرأة ما ان نظر في عينيها حتى ذعر وتراجع الى الوراء .. انها العينان الجامدتان ايضاً ، عينا اخيه !

ولقد كانتا في هذه المرة تقطران بغضاً ! وتقدم فيراتا الى الكوخ ولكن المرأة اختبأت في داخله وأمـــا عيناها فظلتا ترمقان فيراتا من مكامن الدهليز المظلمة في ضراوة عيني النمر المتوقدتين خلال الادغال .

فشد فيراتا من عزمه وتقدم ، انه ما اساء في حياته الى هذه المرأة . لم يرها قط .. فما غضبها؟ ووقف على الباب ، كالمتسول ، فسألته :

ـ وماذا تريد مني فوق الذي كان ؟

ـ أسألك رد التحية ، هل تعرفينني

ـ بلى انت فيراتا .. نجم العزلة !

ـ وهل اسأت اليك قط ؟.

فابتسمت : ـ أسأت إلي ؟ لقد قوضت بيتي . لقد سلبتني كل سعادتي ! اغرب عني قبل اعجز عن كبح غضبي ! سأظل أشكوك الى كل قاض من الاحياء كما اشكوك إلى الله !

وامسكت المرأة بكم فيراتا وقادته إلى داخل الكوخ : وهناك شهد في العتمة جثـــة غلام تطل من عينيه نظرة ساحقة جامدة .. تلك النظرة القاتلة نفسها ! وقالت المرأة :

ـ انه ثالث ثلاثة من الاخوة . قتلته كما قتلت اخوته من

قبل. انظر هذا النول وهذا الكرسي الخالي وراءه . هنا كان زوجي يغزل الكتان ويفيض علينا من عمله وخلقه الهاني حتى علم بك فهجرنا إلى (مأوى الاتقياء) وقد مات اولادي الواحد بعد الآخر من الجوع ايها المغتر .. فكيف تكفر عن جريمتك حين اقاضيك أمام قاضي الاحياء والموتى ، وكيف تبرر إغواءك له بالعزلة وأنها سبيل القرب الى الله ؟

فقال فيراتا : ـ ولكني لم اعلم ان مذهبي سيغري غيري .

ـ ألست تعلم ايها الحكيم الذي غطت الكبرياء بصيرته ، انك حين اخترت عملك اخترت الآخرين ايضا عملهم وطريقهم .. وان ما استمرأته انت قد يكون عند غيرك الصاب والعلقم ؟!

وانحنى فيراتا وخرج مسرعاً ولكنه لم يستطع ان يقضي ليله في الكوخ فحمل عكازه والجراب الذي كان حضر به الى الغاب وعاد ادراجه الى المدينة .. وذاع خبر قدومه فكان يسير الى قصر الملك بين سورين حيين من الاعجاب والاجلال . وحاول ان يرد تحية الناس بابتسامة ولكنه لأول مرة عجز عن الابتسام!

وعانق الملك فيراتا ولكن هذا تمرغ على تراب قدميه يسأله صنيعاً وقال الملك :

ـ طلبك مجاب قبل ان تصوغه الالفاظ .

ـ سيدي لقد شئت ان اتجنب الخطيئة فلم استطع ..

ـ ولكن كيف يكون ذلك أيها الحكيم الصالح ؟

ـ لم اقع في الخطيئة عامداً ولكن اقدامنا مثبتة في

الارض . والاضراب عن العمل هو نفسه عمل : ولقد فررت من الله لاني امتنعت عن خدمة الحياة .. كنت اخدم نفسي وحدها واريد الآن ان اخدم غيري ، ان امنح قلبي للناس !

ودهش الملك :

ـ ارادتك محققة

ـ لا اريد ! لا ! لا اريد ان اكون حر الارادة فالرجل الحر ليس حـــراً والذي يخدم الاخرين دون ارادة هو الحر الحقيقي !

وقال الملك : إني لا افهم امرك

ـ من الخير لك ألا يعي قلبك هذا . واربد وجه الملك وبدا له كأن هذا الشيخ قد خرف ولكي يتبين الامر قال :

ـ أيعجبك ان تكون القيم على الكلاب في قصري ؟ .

فقبل فيراتا اعقاب العرش شكراً وعرفانا وذهب الرجل الذي منحه الناس القاب الفضيلة الاربعة الى حظائر الكلاب يرعاها .. وخجل منه أولاده وتأفف منه الناس وانكر عليه عمله الكهنة ..

ولم تمض شهور حتى خمد ذكر الرجل .. ولم يعرف الناس بعد ذلك من امره شيئاً .. ولعله توفي !

* * *

وبعد فهذا فيراتا .. لقد ذهب بنا في آفاق القصة ولكن هل أبعد بنا عن الطين النبيل ؟.. ما اعتقد فقد وصل بنا الى لب المأساة !.. لقد أعدنا الانسان الناشز من الطين الى افق

الطين اولا ثم اسكتنا غرور العقل عنده ثم تساقطت، كالقشور الجافة، كانتفاضة الخريف، كل محاولات الخير اطلق التي حاولها فلا الشجاعة ناجعة ولا الحكمة بوافية ولا العمل ولا الزهد المطلق! ان اقسى اللحظات لحظة تتبدى فيها كل القيم للمرء وكأنها على مسافة واحدة من الخطأ والصواب .

ومع هذا فشيء واحد يبقى بعد طول النضال . ولف الدروب اليائس .. شيء واحد هو قوام الطين النبيل وهو ذلك القلب الانساني السامي الذي يتعذب !

إن تاريخ الانسانية الحقيقي انما كتبه المعذبون في الارض، لاعذاب الجسد ولكن عذاب الروح والقلب . كتبه الذين تمزقوا اربا إربا ليهبوا السعادة للآخرين .. اشبار الارض التي فتحها الاسكندر ما بقيت له والقتلى الذي اقامهم جنكيز كالاهرامات على كل درب .. سيقوه الى الفناء سنوات معدودة فقط . ولكن الاديان التي جاء بها الانبياء، والمذاهب الاجتماعيه التي يدعمها المناضلون وشعر الشعراء ومبتكرات العلماء هي وحدها الخالدة .. هي وحدها تراث الانسان الحقيقي وبرهان نبل الطين !

وبورك القلق وبورك التمرد . فيها رقص الطين على التجهم ، ودبيب السمو فيه هما سبيل الانسان الى الله .. ان الف موكب تمر الآن في قلبي ، ارى فيها من ابتكر النار ومن علمنا صنع العجلة ومن حاك اول

مزقة من نسيج ، ارى فيها المعري بجوار رامبو ودوستويفسكي الى جانب باستور ويسوع الناصري مع بيتهوفن وابن رشد مع بوذا وماركس .. اراهم جميعا وعلى كتف كل منهم صليبه الفادي .. وماذا على الطين لو سال دماً وشوكا ؟ اليس بذلك وحده يثبت نبله ؟!

* * *

في ركاب الشيطان

« ... ذلك القلب السامي الذي يتعذب »

أما الشيطان فنعرفه أنا وأنت ، وليس بين بني آدم منذ زل آدم وادارت وجهها حواء لتضحك منه، من لا يعرفه فيتجهم له أو يهش . إنه الشخصية الثانية في تاريخ الانسان ، التي تقابل وعيد الله الآجل باغراء النعيم العاجل وتزين القحة لذي الحياء

والسفه ، لذي الحلم والغانية لناسك الجبـــل ... وبالرغم من اللحى التي نطيلها كالاسلاك الشائكة لدرء هجماته وبالرغم من استعد ئنا الله عليه ونحن نركع امام المحراب او المذبح « ربنا لا تبلنا » « ربنا نجنا من التجربة » إلا انا نقع في البلوى وفي التجربة راغبين او كارهين . إن الشيطان في ضمير البشر تنين آمن عتيق نعطيه بطولة كل الآثام ونحمل عليه شتى الشرور ولكن لسانه الخبيث وقرناه الراقصان وعيناه اللتان تنفثان الشرر ،تبرز دوماً من خلال الآثام والشرور وتظل قهقهتـــه الساخرة الرهيبة ترن في اعماقنا ونحن نركض هرباً منه او اليه! إنه سلة المهملات التي نرمي اليها باقذارنا لنتخلص منها حين نحار أين نذهب بها !

ولكني لست عن هذا الشيطان المبتذل بمحـــدثك. والا لحدثتك عن شيطاني المستسر وحدثتني عن اخيه، شيطانك انت وافتضحت مني ومنك هواجس وسرائر نضن بها على النـــور ونخشى عليها خائنات الاعين (بالرغم من انها هي كل عقدنا !!) وانما اقصد الى شيطان نبيل آخر وقد تعجب ان امنحه صفة النبل غير انه استهواني منذ عهد طويل وماحملقت مرة في ملامح احدى العبقريات إلا اطلت علي من خلالها سحنته فارى نظراته في مقلتيها ولهاثه على شفتيها !

هل سمعت بيتهوفن أو شوبان ؟ أم وقفت امام لوحة لميكل آنج أو غـــويا ! أم قرأت وايلد أوبيراندبلو او كفكا ؟ أو

سايرت مرة جنون نيتشه او هولدرلن او كلايست ؟ انك ان فعلت وادركت النسب الذي يعقد ما بين هذه السلالة الفاوستية (المقدسة – الملعونة معاً) التي ندت عن القطيع ومدت لسانها للراعي وللرعية !.. ان فعلت عرفت اي شيطان اقدم لك .

لست أدري إذا كان العرب الاوائل هم اول من اكتشف هذا الشيطان وعرف منزله من عقروجمراته السائلة على الالسن ولكنه . على ما يظهر – كان إذ ذاك صغيراً لا يضغ القلوب وساذجاً لا يعرف تعليم الشذوذ وضعيفاً لا يدفع بضحاياه الا اللانهاية والى ظلمات اللاوعي ... كان يكتفي مثلا بان يرمي بالخطيئة في غيابة الجب عن يدي عمر ويفضح عمر بن أبي ربيعة بين الحجيج وينتهي ببشار تحت سوط الجلاد .. لم تكن للشيطان إذ ذاك مشكلة ولا كانت له نظرية ومريدون وإنما بدأت مشكلته منذ اصبح الابداع مأساة لا لهواً يملأ الفراغ ، وكانت له نظرية ومريدون منذ اضحى « القلق » ابرز ميزات المبدع في الحضارة العالمية الحديثة .

ولا ادري بعد كيف اصور لك ملامح هذا الشيطان . اني لم اقابله إلا من خلال المبدعين . فكلهم شرب من نبعه المسحور وكلهم سار في ركابه . وليس الدكتور « فاوست » الذي خلقه غوته ، هو الوحيد الذي استجاب لنداء « مافيستو » حين تبدى له وقال :

« – أنا من تلك القوة التي نيتها ابداً نية السوء ، وصنعها

ابداً صنع الخير ... اطلق لنفسك العنان كما تشاء وعلى ان انيلك ماتريد .

فاجاب فاوست :

ـ اريد ان اشرب بالكأس التي يشرب بها سائر الناس وان ارقى إلى اسمى غاية ثم اهبط إلى اعمق هوة . . . ولكن ويحك ما تطلبه مني لقاء ذلك ؟ »

انهم كثيرون اولئك الذين لم يصدوا لاغراء هذا الداعي الآثم فانقادوا له في لحظة من اللحظات وباءوه وباءهم وتمت الصفقة في صمت اشبه ما يكون بصمت الغابة قبل العاصفة !

والمبدعون جميعا يعرفون هذا الشيطان فيدعونه تارة «الوحي» واخرى « القلق » واحيانا « الألم » ورابعة « القلب السامي المعذب » وقد يسمونه باسمه الصريح كما فعل فولتير وغوته وتزفايع ولكنهم يتفقون دوماً على مأساة داخلية دامية ونضال لاهب مفعم بالبطولة ورغبة جامحة تسحق الوجود سحقاً للاندماج في اللانهائي وفي المجهول وفي العدم . والمبدع في ركاب شيطانه كغنمة الفداء تسير نحو قدر لا مفر منه او كبرومیتوس الذي سرق النار المقدسة ليعطيها للفانين على الارض ودفع ثمن ذلك كبده التي اوكلت بها الآلهة نسراً ينهشها صباح مساء !

وإذا كان بعض المبدعين قد تمرد على هذه القوة فوق الانسانية فخنق جراحه وانتصر عليها بالابداع نفسه مثل رافائيل وغوته وشكسبير وابسن فان بعضهم الآخر قد غلب على امره

ووضع يده جهراً في يد الشيطان ولنسرع الى القول انهم نوادر اولئك الذين يستطيعون تحمل مثل هذا الموقف البطولي فيواجهون العدم دون ان تزلزل بهم الاقدام وتسمو قيمهم عند انقسهم فلا يستحق شيء لديهم ان يغيروا حياتهم من اجله . انهم يقفون عراة للفجات الصقيع وحيدين مفتوحي الصدر للعواصف . ومن هؤلاء آنجلو ونيتشه وكلايست وبيتهوفن ونوفالس ودوستويفسكي ورامبو (في مرحلة ابداعه) وتولستوي (قبل ان ينهار فيعود في آخر حياته الى نقطة البدء ليستريح في ظل الله الذي انكره) !

والمنتصرون والمغلوبون سواء على كل حال في النضال . سواء في صراع القوى الشيطانية ـ المبدعة ، سواء في معاناة هذه التجربة الحية وتحمل هذا القدر الفاوستي ! لكن الناس بحكم ما في انفسهم من حب للمحافظة والهدوء وما يسيطر عليهم من افكار « بورجوازية » تكره الفوضى حتى في نفسها ، يعجبون بالمنتصرين ويمتدحون ما في انتاجهم من نظام واتساق وما في حياتهم من احترام واخلاق وتوازن و ... « كورفورم » ! وتخدعهم مظاهر البساطة والهدوء في الوجوه عن اعنف الاهواء واظلم العقد في الاعماق ويؤوب المغلوبون على امرهم امام « القلق الخصب » والمقذوفون كالحمم او الاعصار خارج ذاتهم ، بالكره والانكار ويوصمون بالشذوذ ويلحقهم صبية الفكر

بحجارة الحرمان لانهم جرح على راحة الناس و « نشاز » في نغم الحياة الرتيب !

لدي هؤلاء المغلوبين ـ المحكومين فقط يخرج الشيطان من العتمة ليعمل جهاراً فيقطع اولا كل صلة بين عباده وبين الواقع والحياة : فلا عائلة لهم ولا مال ولا رابطة مع ارض أو وشيجة مع وسط ... طبائع شاردة لاجذر لهـــا في مكان ، غريبة امام كل وجه . وينمي الشيطان هذه الشخصية التي تتضاءل امامها كل القيم وتذوب الاعتبارات . أليس بيتهوفن هو الذي توقف عن العزف وانسحب من حفلة لاشراف بروسيا حين سمع اثنتين تتحدثان فلما اعتذرتا بان الحديث كان عن الملك اجاب : وانا ايضاً ملك ؟! أو ليس المتنبي هو القائل :

أنا من أمة تدار كها الله غريب كصالح في ثمود ؟

ويهب الشيطان اخيراً لمن في ركابه ابداعاً اصيلا قوياً صيغ من النشوة ، من الغريزة ومن الحمى ومن الوثبة الحية . وهو لهذا فن ملىء بالمبالغة . وقوته هي في خروجه من اطار المألوف والعادة وفي هذا التوق المتأجج فيه للاتصال باللانهاية وبالبدائي وبالسديم الذي تتكون منه كل الذوات الحية !

أما المغلوبون انفسهم « فيجهلون ما هم ؟ وما الطريق الذي يسلكونه لانهم لا يفعلون سوى ان يخرجـــوا من اللانهاية ليذهبوا الى اللانهاية » .

أرأيت إلى شهداء المسيحية الاوائل ، كيف كان نيرون

يلبسهم الهلاهيل المشتعلة فيندفعون راكضين في المسرح وهم شعل حية ، بين ضحك المتفرجـــين وصخبهم لا يدرون اين يذهبون ؟ ام رأيت الى المجنون (الذي تحدث عنه تزفايغ) جنون (آموك) يثب فجأة من كسله فينتضي خنجره والزبد ملء شدقيه ويركض كالسهم قدماً امام نفسه في طريق مستقيم ، مستقيم كاء هرب ... لا يعلم الى اين ؟

قد يكون ذلك الشهيد او هذا الاموك « صورة لهؤلاء المبدعين الذين يندفعون كاللهب المنفوث في طريق مجهولة المبدأ أو المنتهي ! وقد يظنون انهم يناضلون ويعملون من اجـــل حريتهم السامية . ضلة ما ظنوا ! ! انهم يبتدعون هذا المثل الاعلى ، في الواقع ، ليعطوا معنى لحياتهم التي تبقى بدونه ولا معنى لها !

أما الابداع الذي يلتمع احيـانا بين ايديهم ، فهو الثمن الذي يتقاضونه لحياتهم السليب . انه كالتماعة الشهاب وهويهوي في الظلمة .. تحية وداع الوجود ، وتبلغ المأساة ذروتها حـين يأتي دور المصير الذي ينتظر هؤلاء المغلوبين المبدعين . وهـو ابداً مصير قاس عنيف « فالضيف الرهيب الذي يسكنهم لا يصل الى وطنه ، الى اللامحـــدود ، والى عنصره الاساسي الا بتحطيم الحدود والارضي وبسحق الجسد الذى يسكنه .. ولا يكون هذا الضيف اشد وضوحاً وسلطة منه حين تتمزق نفس

المبدع وتتشعث بضغط الألم وتنفذ العين من خلال الجراح الى اشد الاعماق صميمية » (*)

وإذا بلغ الشيطان من معبوده هذا المبلغ هجره الى اللعنة وإلى الوان من الاقدار والمصائر : فاما السل واما الزهري الخبيث ، وقد تكون النهاية الى الجنون او الى الانتحار . وتعبر النفوس المعذبة عن ضغط تلك اللعنة الاخيرة بهذا الحنين الى الموت الذي نلقاه في كل ابداع اصيل والذي تلتقي فيه رعشة الحب بلذة الحرية .

* * *

إني في محراب نفسي كثيراً ما اصلى . ولكني على أي حال لا أدعو ان يبعدني الله عن ركاب الشيطان .. « ذلك القلب السامي الذي يتعذب » .

(*) بعض هذا الحديث مقتبس من ستيفان تزفايغ .

الفن والشيطان

بين الفن والشيطان ود عتيق ، وصلة من التعاون واشجة تهز أحقاب من التاريخ ! وحين مر في خاطري أن أتكلم عن الفن والشيطان ضحكت في سري .. ضحكت ان فتحت لي كوة لمعابثة الشيطان في ميدانه الحر ؛ ولكني حين بدأت الكتابة ، تبينت سريعا ، ان الشيطان هـــو الذي ضحك مني وغرر بي ، لأتكلم عنه ، ولأكون غرابه أمام الناس ، والمتطوع لرد اللعنة

التي تقترن دوما باسمه ، على اني لا شأن لي في الواقع بالشيطان الرجيم ، ولست بمتكلم عن ذلك الوسواس الخناس الذي يحيطه الناس بالتهاويـــل ومرعب الصور : فيطيلون في قرونه او يقصرون ، ويملؤون بالشرر عيونه الطولانيـــة أو باللهب ، ويغمسون بالسحر الاسود اسنانه وهمساته :

ويقولون إنه :

يلف ثعباناً على خصره ... يكمن في نابيه كيد القدر
ينبعث الدخان من شعره ... ويتلظى في مقلتيه الشرر
كأنمـــا الله لدى خلقه ... زوده بكل ما في سقر !

إبليس هذا هو المرآة الاخلاقية لما نجترم من شرور ولا شأن لي به ولا بالأخلاق هنا . ولكني سأتكلم عن شيطان آخر من عالم آخر ، لم يخلـــق من مارج من نار ولا هو المشجب الذي نعلق به كل آثامنا !.. إنـه خادم أو سيد هناك في عالم الجمال ، يعرفه كل مبدع مع انه سديمي الكيان ، مظلم العنصر ندعوه أحيانا بالوحي واحيانا اخرى بالالهام وقد نسميه شيطانا او نحسبه من طينة الآلهة . لكن ما اكـثر الذين ينتظرون مروره بصوامعهم ليرمي بين ايديهم بعض زهره وعطره وسمومه ولست أزعم طبعاً أن كل فعال فعال الخير !،

هذا الشيطان قديم الصلة بالبشر ، قديم قدم الحس البديعي فينا ولعله وجد مع وجود الانسان وولد مع مولد قلبه وحسه : رافقه في الكهوف الاول ، ومشى معه إلى هيا كل المعبودات ،

كما زين له الرفض وسقاه الاسطورة والشعر . وإذا شئت أن اكون اكثر دقة قلت ان الانسان أناط بهذا المخلوق الوهمي مهمة توسعة الحياة وتزيينها . أو لسنا لهذا خلقنا الفن ؟.

وهذا الشيطان إلى ذلك ، تعرفه كل الامم : عرفه الهنود في الزمن الاقدم والفرس . كما سماه الرومان (موزا) وعبدوه وآمن به الاغريق ايضا فكان سقراط يعلن ان له شيطاناً خاصاً يوحي اليه بما يريد . أما العرب فكان عندهم من هذا الشيطان قبيل كامـــل ذو منازل وثارات ، ومراكب من الحيوان وعزيف يصم الأسماع ..

ولقد عرفتم عبقر ، ذلـــك الوادي المجهول الذي تنزله طوائف الجن زمراً تزحف حول زمر . وفيه كما قال شاعر :

غمائم زرق عـــلى متنها ... منازل جدرانها تسطع
جهاتها الأربع مرصودة ... تحرسها الزعازع الاربع
ما أفلت الانسي من زعزع ... الا تلقى صدره زعزع

ولكن قطان ذلك الوادي الضبابي الرهيب على اتصال دائم ببني البشر فلكل شاعر واديب زميل في عبقر يمده بالوحي. هناك يعيش (مسحل) شيطان الاعشى و (عتيبة بن نوفل) صاحب امريء القيس و (ابن العجلان) جني طرفة و (عتاب ابن حبناء) رفيق ابي تمام و (ابن الشيصبان) عفريت حسان و (حسين الدنان) شاعر ابي نواس و (سنقناق) بشار بن برد !

وهناك موطن الهوبر والهوجل اميري الشعر الجيد والردىء بل إن عبقر عند العرب مصدر كل رائعة مدهشة من القول

والعمل . فتدمر جنـــة البادية ، إنما بناها الجن لسليمان ! وايوان كسرى :

ليس يدري أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لانس!

وأخيراً أو اسنا لعبقر ننسب كل مبدع عبقري ؟.

وكما ملأ الشيطان خاطر العربي فهو كذلك يملأ وهم الغربي اليوم وليست تقتصر صورته على صورة (الشيطان الاخضر) الشعبية، بل تتعداها إلى الوان شتى من الشياطين .. منها (ربة) فيني الرفيقة ، ومنها الرجيم الذي ركب نيتشه حتى الجنون ، واللعين الذي اورد كفكا مورد الهلاك !.

واحسبني هنا استطيع التساؤل عن السبب في رد الالهام الفني الى الشيطان دون غيره ! واستطيع في نفس الوقت ان اجيب ان السبب في ذلك هو اولا الروعة الساحرة التي تتجلى في العمل الفني .. والسحر في عرف البشر من عمل الشيطان ، ثم ما عرف به الفنانون أجمعين من شذوذ واضطراب .. وهي امور متصلة بالشر والشيطان . ولقد صنف افلاطون في كتابه (فيدر) الوحي الفني بين انواع الهذيان الاربعة وذكر ارسطو الفنانين المجانين ثم عمم وقال : « ان اغلب العظماء سوداويون » وجاء اخيراً لومبروزو فعرف العبقرية بانها شكل مخفف من مرض الصرع في نوباته المفاجئة والعنيفة !!

ويقولون ان شذوذ الفنان هو الضريبة التي يؤديها ثمناً لابداعه وما من داخل الى حرم الفنان يعفو منها : يدفعها من

دمه احيانا ومن سمعته وآلامه وحياته .. انها لعنة الفن .

على اني لست ادري بالضبط ما الذي يجعل إناوة الشيطان هذه في حضارتنا الحديثة اليوم ، اقسى واعمق جراحاً ؟ لست ادري ما الذى يجعل حياة كل فنان مأساة وفلذة من جحيم ؟ اهو عمق النزوع للاندماج في اللانهائي وفي المجهول ؟ ام هو اليأس المر من حضارة المادة ؟

وأستعرض الفنانين في مخيلتي موكباً بعد موكب فاراهم جميعاً ضحايا ذلك « القدر الفاوستي » الذي جعلهم مبدعين !

فلائل اولئك الذين سيطروا مثل غوته ورافائيل ، على شياطينهم فاحتفظوا بابتسامة الهدوء في الاعين والقلق الخصب يفتت ماوراء الضلوع !

اما جمهرة الموكب فاشبه بمظاهرة لمشوهي الحروب :

فان كوخ مثلا يقطع أذنه ويبعثها هدية لفتاة قالت له ان أذنك جميلة ، وهولدر لن يقضي ٤١ سنة في ظلمـــات الجنون وموزارت يموت مسلولا فلا يجد من يمشي وراء جنازته سوى حفار القبور . ودونرفال يلفظ انفاسه في الوحل تحت مزراب مطر ! كلهم من تلك الطبائع الشيطانية التي قطعت كل صلة لها بالمحدود وبالارض لتنزع الى اللامحدود والى ما وراء الجسد .

« ان صاحب الروح الممزقة هو وحده الذي يعرف النزوع الى الكمال ومن قدر عليه التشرد هو وحده الذي يبلغ اللانهاية! »

هكذا يقولون !

وترضى هـــذه الارواح الشاردة عن نفسها او تسخط ، ولكنها في الحالين تسلم القياد للشيطان الذي يقذف بها خارج ذاتها لتركض دون ان تعلم أيان المصير ؟ كشهداء المسيحية الاوائل الذين كان يلبسهم نيرون الهلاهل المشتعلة فيندفعون راكضين في مسرح الالعاب لايدرون اين يذهبون ؟

ويبلغ الشيطان منتهى سؤاله منهم حين يغريهم بالمزيد من الابداع والمعرفة والاتصال باللانهائي .. فيجهدون اعصابهم بالمنبهات ، ويسرفون فيها .. ويبدأ بذلك الانهيار !

طريق الشيطان هي التي اوصلت (بو) و (موسه) مثلا الى الكحول وقادت موباسان الى الافيون والكوكائين وبودلير واوسكار وايلد إلى الحشيش ! ودوستويفسكي إلى القمار . ومع ذلك فقد كانت هذه الطريق هي نفسها طريق الابداع العبقري!

وبعد فمن هو أو ما هو هـذا الشيطان يا ترى ؟ ماعنصره الفنان ؟ في إحسانه وإساءته على السواء ؟ لقد التقط ملامحه عدد من ادباء الغرب أو هم حسبوا ذلك وطوقوه بعدد من الصور لعل أبرزها صورة مفيستو عند غوته وصورة الشيطان الاعرج عند (لوزاج) والشيطان العاشق عند (كازوت) . وشياطين برناردشو واوسكار وايلد وبرنانوس . ولكن هل عرفوا حقاً ذلك الشيطان ؟ أم أنه كان يفلت من ايديهم ضاحكا كل مرة بعد ان يترك على اوراقهم صورته الزائفة ؟. كأني أرى انه ليس ثمة اقل شيطانية من تلك الشياطين المقيدة بين صفحات القصص

والكتب . وكأني ارى ان الادباء والفنانين هم اقـــل الناس جدارة بان يتكلموا عن انفسهم . وشيطانهم ليس شيئاً آخر إلا هم ، في لاشعورهم العميق وتداعيهم الفكري الغريب وإحساسهم الذي يرعف بالالم وقدرتهم اخيراً عـلى التعبير .. ما ندعوه بالشيطان في الفن ، ليس شيئاً آخر سوى هذه الفعالية الفائضة التي نضعها في خدمة الابداع الفني وإذا شئنا أن نخطو خطوة أخرى في التحليل قلنا ان ذلك التفاعل بـــين عدد من مجاهيل نفوسنا: من لاشعور وتداع واحساس هو الوحي وهو الشيطان.

ولكن « اللاشعور » في الواقع ليس غير اسم جميل اطلقه علماء النفس على نقص في هذا العلم !

والتداعي انمـــا هو فعالية مانزال نجهل طرف عملها ، والاحساس سيظل حائر المرجع بين الفزيولوجيين والنفسيين ، ثم ان الميكانيكية التي تتفاعل تبعاً لهـا هذه المبهمات وتتركب الصور ثم يعبر عنها بالتعبير الجميل .. تلـــك الميكانيكية أمر سرابي ، في مستوانا العلمي الحالي عـلى الاقل فلتهدأ عبقر إذن وليطمئن الشيطان فسيظل اسمه مقرونا بالالهـــام والوحي ، وسيظل طريقه طريق كل فنان !

أتراني بهذا أرضيت شيطاني ؟

بين العلم والفن

منذ حوالي ثلاثة قرون او تزيد، حين رد الفيلسوف (بيكون) نظر الناس عن التأمل المحض إلى الطبيعة وإلى الواقع الملموس واختط لهم فيها طرق الاستقراء والتجريب ، وحين ميز العالم (غاليله) بين الكمي والكيفي من صفات الاشياء أي بين ما يقاس ، وحين زاد (ديكارت) هذا التمييز عمقا بخلقه ثنائية الجسد والروح .. منذ ذلك الوقت عرف الناس ان منهجاً جديداً في

المعرفة قد فتح على الانسان واخذت كلمة (العلم) رمز العلم الحديث تحل تدريجيا محل كلمة (لوغوس)! ومشت الانسانية في هذه الطريق ثلاثمائة سنة !

ما كان بامكان احد ان ينكر ، حتى عهد قريب ، ان كشف المنهج العلمي سجل مطلع العصر الذهبي للانسان لا سيما بعد ان نجحت دراسة الكمى ، وذلت المادة ، ودخلت آلاء التطبيقات العلمية كل بيت ، وتطلعت الاعين الى ما وراء فلق الذرة .. على ان الكثيرين يرون اليوم ان ذلك الكشف كان غلطة فكرية كبرى ! غلطة لانه على الاقل مزق إهاب الفلسفة وانكر الفن – وهما وجهان اساسيان من وجوه المعرفة الانسانية – ولم يستطع ان يملأ وحده كل كيان الانسان . اما اولئك الذين يتعصبون للعلم فمصابون بنوع من الانحراف الفكري يأبى عليهم إلا ان يدخلوا من الباب الضيق !

أنا بعيد هنا عن ان انقد العلم او اعان كرهه وقصر نظره وبعيد ، في الوقت نفسه عن ان آتي في نصرة الفلسفة والفن بقول جهيزة : تقطع قول كل خطيب . ولكني اجد الكثير من اللذة والحماس في معارضة المنهج العلمي ومعابثة اصحابه بعض العبث . ان له ولهم ، في بعض الاحيان منطق الموظفين الماليين وتجهم التاجر في يوم تبرعات ! سأكتفي بمقارنة النهج العلمي بالنظرة الفنية . وماذا علينا لو غزلنا حول مباضع العلماء بعض الاحلام والاطياف أو سكبنا بعض الاصباغ واللحون على

معادلات الرياضيين ؟

نستطيع ان نبدأ الموازنة بين العلم والفن من نقطة مشاع مشتركة بينهما . فمهما اختلفنا واختلف النـــاس في ماهيتهما وحدودهما فقد لا نختلف في انهما ظاهرتان انسانيتان . اعني انهما : من الانسان وبالانسان والانسان ولهذا فليس كل من العلم والفن اكثر من جعبة حيل .. وحيل ابتكرها الانسان لحل معميات الوجود . كل منهما قفزة لتحدي هذه الغابة من الاسرار التي يسمونها الكون ومحاولة لاعادة دمج الذات — حين تعي تفردها وعزلتها — في تيار الوجود الكلي . وفي هذا تفسير ما يرافق انتصارات العلم والفن من فرح ونشوة واطمئنان عميق . ولست اقصد بالطبع الوجه الصوفي الفلسفي للمسألة ولا اريد التقريب بين نشـــوة الظفر بقانون علمي او الوقوع على رقصة مبتكرة وبين نشوة الاشراق والحلول عند المتصوف ، ولكن يظهر ان كل شعور بالتوحد والانسجام وبالكشف يرافقه موكب صاخب من الفرح النشوان فكأنه يزيد من شعور الانسان بانسانيته العميقة وبتساميه على ذاته .

على ان العلم يكتفي بهذا القدر من مشاركة الفن فلا يكاد يتفق معه في شيء كثير وراء ذلك !

فالعلم يقسم الوجود ليدرسه جزءاً بعد جزء والطبيعـــة عنده مجرد ظواهر منفصلة : بعضها يجمع وبعض يراقب وثالث يدخل المختبر ... وتفلت من بين اصابع العلماء الدقيقة تلك

الرابطة التي تربط الاجزاء وتعطيها معناها : تفلت الحياة ولا يستطيع العالم ان يعود فيرى الكون على انه وحدة عضوية متماسكة ما دام قد مزقه منذ البدء ! لايستطيع ان يفهم جمال الثلج على القمم وروعة كليوبترا او موسيقى واغنر ! وانى للمنظر الثلجي بالجمال وهو ليس اكثر من بلورات من الماء فوق حجارة عارية ؟ ومن لكليوبترا بالروعة وهي ليست اكثر من نسج وامصال متوازنة توازناً فيزيائيا ـ كيماويا ؟ وكيف تهزنا (تريستان وايزولت) وهي ليست اكثر من موجات اهتزازية ذات تواتر محدود وفواصل معينة ؟

إن الفنان يبدأ ، بالعكس ، بالنظر الى الوجود ككل . ولعله من الاصح ان نقول إنه يمنح الظاهرة العابرة ، دفعة واحدة صفة الكل ويحقق المعرفة بالحدس المباشر دون مناقشة للحدود او غرق في الدقائق . كان برونتغ صادقا حين قال : « ليتجادل الآخرون ومرحبا بجدلهم اما نحن فنعرف الموسيقى » وهكذا كان غوته نموذجا لكل شاب في (ورتر) بينما احتاج باستور لألف تجربة وتجربة كي يثبت عدم التوالد الذاتي ؛ وكانت سمفونية بيتهوفن الثالثة رمزاً لكل بطولة بينما لم يوضع رمز الماء إلا بعد جهود قرون من الكيمياء . وقد ذكر (غاريت) امثلة طريفة لتباين النظرتين العلمية والفنية : ذكر ان عالماً كبيراً قال بعد مشاهدة احدى المسرحيات الرائعة : « ولكن .. ماذا تثبت هذه المأساة ؟ » . وروى ان شاباعالما

نقد قول وردسورث :

« ... وعندئذ يمتلىء قلبي سروراً ويرقص مع هـذه الزهور » بقوله : ليس صحيحا من الوجهة العلميـة أن قلب الشاعر كان يملؤه شيء غير الدم كما انه مستحيل علميا على ذلك القلب ان يرقص أو يفعل شيئاً دون ان يمرض ! إن امعن بعداً عن الخيال خير فيها لهذا البيت ذلك الناقد العالم !

ثم ان العلم من جهة اخرى . موضوعي ، كما يقولون ، يقسم الوجود إلى ذات متأملة وموضوع تأمل . لا بد من هذه الثنائية فيه . وما من رابطة بين طرفيها سوى المقيـاس او الميزان او المبضع والمخبر . والطبيعة بحدودها المادية المتناهية هي التي ترسم المدى الحيوي للعلم ومدى وثبته .

وسحقا بعد ذلك للعواطف والقيم وما وراء هذه الطبيعة ! فالقمر ليس اكثر من كوكب هامد مشوه الصفحة بالبراكين وألوان المغيب ليست اكثر من موجات كهرطيسية تلتوي في الآفاق ! واما كيف اضحى القمر سمير كل شاعر وحبيب وكيف اضحى المغيب نبعة إلهام فلنسأل الفن !

إن الفن ، بالعكس ، ذاتي ومفرط في الذاتيـة احيانا والفنان « يضع نفسه بنوع من المشاركة الوجدانية ـ كما قال برغسون ـ داخل الموضوع » يحياه ويفنى به ويضفي عليه من عنده ألوان قوس قزح . إن بيكون الذي حبس العالم في اطار الطبيعة هو القائل : « الفن هو الانسان مضافا إلى الطبيعة »

وهكذا فالجبال التي لم يكن لها من قيمة بديهية في عصر اليونان أو في الأدب العربي القديم أو في العصر الكلاسيكي الاوربي اضحت جميلة منذ ظهرت الابداعية في الأدب . والزهرة تظل علميا وسيلة لحفظ نوع الزهر : فمن برعم الى زهرة إلى ثمرة إلى حبة إلى نبات جديد وهكذا ... في حلقة من العبودية مغلقة حتى تدخل قلب الانسان فيزول عنها مظهر العمل الدائب وتضحى مرة بعد مرة رمزاً للراحة وللحب وللطهر الخجول ولرقصة الاغراء في شفة بخيلة !

والعلم الى هذا يريد الوصول الى الحقيقة . دعونا من الربيين الذين يزرعون الحيـــاة قلقا ووساوس ويتساءلون عن وجود الحقيقة المطلقة . ولنقل ان العلماء يريدون على طريقتهم الخاصة كشف الحقائق الثابتة والنهائيـة للوجود ، في حدود الكمي منها على الاقل . أي في حدود العلاقات العرضية بين ظواهر الطبيعة وما يمكن حشره في اطار القانون الرياضي .. (وان طمعت أحرف هذا القانون المنمنمة في ان تحتوي الوجود كله ذات يوم) اما الماهية والجوهر والكنة .. فقد كان من مبادىء العلم الحديث الا يقرب امرها . والعالم اليوم لا يهمه ماجوهر الهيدروجين ولكن الذي يهمه هو علاقته بعناصـــر الكون الاخرى ولا يتسائل عـــن كنه الكهرباء او حياة الجميرة النباتية بقدر ما يحاول استغلال تلك وتحسين نوع هذه !.

أما الفن بالمقابل فليس يصبو لغير الجمال وبقدر ماتبدو

الحقيقة واضحة محدودة رياضية بقدر ما يلف الضباب افق الجمال ويلونه بالهواء . ولكن الفنان يعرف بالحدس المباشر ان التجربة البديعية خلاقة في جوهرها ، سواء كانت ابداعاً أم تأملا . وما الطبيعة والوجود لهما سوى تكاءة عابرة ومبعث تحريض . يقول دولاكروا « الطبيعة معجم وليست كتابا ومواد بناء وليست بناء » ! واذا كان العالم يدرس طرق البناء الكوني فان الفن يخلق مثله في كل لحظة . كان الرسام كورو يرسم مرة في احد الحقول فاقترب منه أحدهم وأدهشه الا يرى من توافق بين الرسم والمنظر الاصلي فلما سأله اجاب كورو : « ما أرسمه ليس هنا ! انه مكان آخر ! »

والعلم بعد ذلك يهدف الى امتلاك الوجود وتسخيره . لابد للسيطرة على الطبيعة من معرفتها . هكذا قال كامن العالم الاكبر بيكون . وكانت هذه الصيحة من الصيحات النادرة التي وجهت تاريخ الانسانية وملأته بالخصب . أو ليست هذه المدنية القائمة من آلاتها ؟ غير ان الفن يرمي الى امتداد الوجود وتوسعته . وإذا قال شكسبير على لسان هملت الموسوس « الفن مرآة الطبيعة » فانه لم يعدم ساخراً مثل اوسكار وايلد يعلق على ذلك بأنه إنما قال ما قال لاثبات جنونه !! إن كل عمل فني هو في الواقع اطلاق لعوالم لا حد لها وراء هذا العالم . ولم يكن أناتول فرانس مغالياً حين قال عن احد كتبه : « ان له من الصور بقدر ماله من القراء . وتلك العوالم التي خلقها

دانتي والمعري وملتون وهوميروس لست شك في أنه كان أن ولا يزال لها من الاثر في تاريخ الانسان بقدر ما لأحداث عالمنا هذا ، عالم سفر التكوين ! ان الانسان يزج بخيلته دوماً حيث يعجزه واقعه وهـــذا بكل بساطة هو العمل الفني ! علق رجل مرة على صورة للرسام الانكليزي تورنر قائلاً : « اني لم أرَ غروب شمس كهذا الغروب قط » فكان جواب تورنر « ولكن الا تحب ان يتاح لك ذلك ؟ ألا تحب أن يكون ذلك واقعا ؟ »

والعلم اخيراً ، في مجموعه ، اسار وقيود وعلاقات ترابط محدودة والطبيعة بالنسبة للعالم نهـــاية . ويقف الفكر حيث ينتصب القانون . لا يمكن لذرة هيدروجين ولمثلهـــا من الاوكسجين أن تشكلا ذرة ماء ولا سبيل لان تصبح ١ مع ١ يساويان ٣ أو ٥ مثلا اما في الفن فذلك ممكن ومعقول ذلك ان الاثر الفني نقطة انطلاق وهمسة ايحاء وهو لهذا تمرد وحرية ولا تنتهي مهمته بانتهاء خلقه وابداعه . انه يظل ناقصاً حتى يأتيه متأمل يقوم بعملية إبداع اخرى ينقله بها ، على الشكل الذي فهمه به ، الى ذاته ، فهو في الحالين إبداع وتأمل إذن ومبعث تحرر وانطلاق . وإذا قال سارتر ان كل عمل ادبي هو نداء لحرية الآخرين فنستطيع بكل اطمئنان ان نعمم ذلك على كل اثر فني . وكم تخسر الحياة من الشعر أي من الحرية

إذا هي اصمت أذنيها عن ذلك النداء .

* * *

ذكرت مرة قصة الشاعر الانكليزي جون كيتس الذي ناقش اصحابه في احدى الولائم في أزمة الشعر واكتساح العلم له في عصره فرفع كأسه الى شفتيه قائلا :

– لعن الله نيوتن !

وشرب الجميع نخب اللعنة . لان نيوتن واحد من اولئك الذين حطموا الشعر في قوس قزح وخنقوا الاحلام وطردوا الرؤى عن الجفون ! إني إذا رجعت إلى نفسي وجدتني مع الفن والفنانين . ووجدتني اهتف من وراء السنين ، مع كيتس : لعن الله نيوتن !

في الجمال

بدأ اناتول فرانس كلامه عن (علم الجمال) مرة بهذه الكلمات :
« في علم الجمال ، اعني في الغيوم ... » يريد بذلك ان يشير منذ الخطوة الاولى ، الى تلك الغلائل السرابية الرفافة التي تلفف الفكر كلما تناول بالنظر احد تلك الاقانيم الانسانية الجميلة : الخير ، الحق الجمال ... ولهذا اجدني ، في حيرة التيه ، إذا بدأت بالتساؤل عن الجمال ؟ ما ماهيته ؟ وما حدوده ؟ وما عناصره ؟

إنها اسئلة يمكن ان نجيب عليها مازحين - وقد لا نتهم في مزاحنا هذا بالسخف - إن الناس جميعاً يعرفون ما الجمال ؟ ولكنا لا نستطيع ان نزيد على ذلك حكمة والجمال امر يشعر به اكثر مما يعرف وإذا شئنا ملاحقته بالحدود والاوصاف ضاع منا وضللنا القديس اغناطيوس الذي ألقى على نفسه يوماً هذا السؤال : ما هو الزمن ؟ ثم فكر وقدر وفكر ثم قدر فرأى انه كان يعرف من حقيقة الزمن كل شيء حين لم يكن يخطر في باله ان يلقي السؤال ، فلما تحركتا شفتاه به ضاع في مسارب الفكر والتوى عليه سبيل الصواب !

ولعل هذا هو الذي اتفق لجهابذة الفكر الذين بحثوا هذا البحث منذ افلاطون ولونجين إلى هيغل وكروتشه ولو شئت متابعتهم في آفاقهم لكان علي ان ادور حول نفسي في اقبية التعاريف الميتافيزيكية واستعير اقوالهم من ان الجمال تناسق أو انسجام او نسب عددية او صورة المثل او انه صورة الحق او الخير او الحب او الكمال ... الى آخر ما هنالك من خبط عشواء التفكير . ولشد ما اكره ان اورط نفسي في هذه الدروب الكثيرة المزالق الحديدة الشوك ولكنا قد نستطيع تهوين الامر تهويناً عامياً إن نحن بدأنا فرأينا ان الناس رغم اختلافهم في الجمال والجميل وفي عناصر الحسن وافاعي القبح يتفقون في نقطة هامة هي اعترافهم ان في بعض ما يرون او يسمعون او يعملون او يتخيلون صفة او صفات معينة تلذ لهم

او تعجبهم او تثير فهم بعض العواطف السامية ويسمون ذلك جمالاً كما يسمون إدراكه ذوقاً .

من الحقيقة الأولية ينبت أمران هامان : أولهما ان الجمال موجود ونحن نشعر به في الطبيعة او في الابداع الفني على السواء . وثانيهما انه ليس من الضروري ان يعتن بالخطوات الواضحة الصفة او الصفات التي جعت من الجميل جميلاً ... فمن الاقوال الشائعة بين الناس انه لا ينبغي الجدل فى مسألة الذوق وفي هذا كثير من الصواب فإنا لنعجز عن ان نقنع امرءاً بانه مخطىء في تفضيله سفينة التجرى في الايوان على بحيرة لامارتين واغنية الكرنك على السمفونية الخامسة لبيتهوفن ولكنا لا نعجز عن اقناعه بخطئه في مسألة هندسية او في اعتقاده ان الارض منبسطة ! ذلك انا في مسائل الذوق لا ندري حتى كيف نبدأ الرهان ، وليس السبب الوحيد في هذا ان القصيدتين معقدتان او ان الاغنية غير السمفونية . ولكن لان مسألة الجمال تتبع متحولات كثيرة معقدة ومتباينة اقلها ما تعلق بمبنى القصيدة وقوافيها وكلماتها . فوراء ذلك ميول الشخص وعاداته وتربيته وثقافته وزمنه وعرقه ووسطه ... إلى آخر ما هنالك . وكل منا إنما يشرف على آفاق الجمال من زاوية معينة ولعله من المستحيل ان يحتضن امرؤ في نفسه كل الآفاق المتناقضة دون ان يفقد الكثير من توازنه بل لاقل من صفة الانسانية !

وقد نستطيع بعد ان نستخلص من اختلاف الناس ذلك

الاختلاف ان حقيقة الجمال يجب الا يبحث عنها في العالم الخارجي، فهي ليست بحقيقة موضوعية والاعتقاد بوجود الطابع المشترك الاشياء الجميلة هو الذي اوقع الناس في عقائد وهمية ، فقد اضحوا يقدرون الجمال في الاشياء بقدر ما تحويه في الكمية او النسبة من ذلك الرحيق المجهول الذي ينسكب في الجميل فيجعله اقرب الى تلك الصورة المثالية من الجمال الكامل التي ننصبها في نفوسنا ونضعها في رأس القائمة ..

واحسبنا هنا في حاجة لان نعتذر لشيخ المفكرين القدماء (ارسطو) ولشيخ المحدثين (كانت) إن خالفناهما فقلنا ان الجمال موقف نفسي قبل كل شيء اي انه عاطفة باطنية او حس داخلي ، قد تكون وقد لا تكون له في العالم الخارجي تلك الحقيقة المادية المحدودة التي يمنحها له بعض المفكرين ، ولشد ما يعجبني بهذه المناسبة تعريف كروس للجمال بانه حالة الفكر في يوم عيد !!

ولسنا نكفر بالجمال إن نحن رددناه مجرد إحساس نفسي ، ولسنا نحط من قدره إن اعتبرناه صفة ننسبها خطأ للاشياء التي نشعر إزاءها به ، وجعلنا انعكاس نفوسنا ورأينا انه إنما يبدأ منا ليعود إلينا وما الشيء الجميل خلال ذلك سوى وسيط ومحرض ، لا ! ليس ذلك بكفر بالجمال ! ولماذا نظن أن إحساسنا الخاص – وهذا الامر يرتبط بعقولنا – اقل شأنا او قيمة أو صدقاً من صفات الجمال التي نتصورها خارج نفوسنا ؟ إن السعادة

لا وجود لها إلا في نفوسنا ، وكذلك البطولة والحب ما من مكان لهما غير حنايانا ، فلماذا لا يكون معبد الجمال في قلوبنا ايضاً ؟

وبعد ، فاذا نحن آمنا بان الجمال موقف داخلي نفسي سهل علينا ان نفهم لماذا لم يكون للجمال من حدود ؟ ولماذا تترامى آفاقه شاردة وراء الامتاع والفائدة ، ووراء اللذة والملاءمة والاطمئنان ... وسهل علينا ايضاً ان ندرك لماذا نراه في كل شيء حولنا ، في الرقص حين نمارسه او نتأمله ، وفي الشعر عند قرضه او تذوقه وفي التمثال إذ نبدعه او نعجب به ، وفي الموسيقى إذا خلقناها او اهتصرناها ،وفي الدراما عند تمثيلها او تمثلها ، وفي الصورة إن نحن انشأناها او بصرناها للتأمل ... بل إنا لنراه في اصطياد الفكاهة وفي حب الاناقة على السواء ،وفي تصفيف الورود في الزهرية او في تطريز منديل عادي ونتوخاه في تخير العطر ونتلمسه في تأمل الفجر... إن الجمال ليخرج من الايدي التي تعجن التمثال او ترسم اللوحة او تقطع الخشب او تنسج الحرير او تنحت المرمر او تشق الجسم الانساني في عملية جراحية سواء بسواء . أجل ! إنا لنجد الجمال في الفن الدامي بكبار الجراحين كما نجده في فن المصورين والموسيقيين والشعراء ونلمسه في حسابات غاليله ورؤى دانته كما نلمسه في تجارب باستور وفي طلوع الشمس على المحيط وفي آلام الشتاء على الجبال العالية . وهو اشد اسراً في عالم الذرة المنظم وفي

التناسق الذي لا يدركه الوصف في الدماغ الانساني وفي النفس الانسانية التي تضحي بنفسها للآخرين في صمت وفي سكون ..

ولعلي لم اركب متن الشطط في تصيد الجمال بكل زاوية من زوايا الحياة فإذا عين المرء هي التي تهب الجمال فهي ايضاً التي توسع من افقه او تضيق وهي التي تمنحه وتمنعه

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

ولأسرع إلى القول إن الحس البديعي عاطفة عامة لدى الناس يشعر بها كل فرد منا ويصطنع مقاييسها واحكامها وينتج ضمن دائرتها دون ان يدري احيانا ... كمثل بطل موليير في قصة (البورجوا جانيتوم) الذي ذهب يتعلم الأدب بعد كبر فقسم له استاذه الكلام الى قسمين منظوم ومنثور وعلمه ان المنثور هو هذا الكلام العادي الذي يتراكض ما بين الألسنة والشفاه في كل لحظة فصاح صاحبنا دهشاً : « إذن فانا اتكلم النثر منذ ثلاثين سنة ولا ادري !! » .

وكذلك نحن لكل منا نصيبه من الحس البديعي وهو لا يدري .. وإنما تختلف انصباؤنا بالدرجة فقط فنذوق الجمال والتمتع بالفن لايفرض نفسه على الانسان من خارج النفس اي أنه ليس بحقيقة مطلقة تنتج عنها بالضرورة كمية معينة من الانفعال او الفعل ولكنه حس داخلي ينبثق فينا ومنا ولنا .. ويستمد اكثر عناصره من الشخص وميوله وعاداته التي طبع عليها ثم من تربيته وأفكاره وزمنه ومن عرقه ومجتمعه وثقافته ..

ونستطيع ان نذهب في التعداد بعيداً على ان نذكر دوماً ان الجمال إنما هو في الاصل بين اضلاعنا نحن ! وهو موجود لدى جميع الكائنات الانسانية ، لدى اكثرها بدائية وأسماها مرتبة على السواء وموجود منذ أقصى العصور قدماً حتى اليوم بل انه ليوجد قبل وجود القوى العاقلة في الجسم لأنه يظهر في طفولة الانسانية ويبقى حتى عند فقد العقل أو اضطرابه لأن المعتوهين والمجانين قادرون عـــلى إبداع الأعمال البديعية الفنية . ولعل عبقرية فان كوخ وكلايست وبيتهوفن ليست اكثر من نوع خاص راق من الجنون !!

إن تأصل الحس البديعي هذا التأصل ينتهي بنا إلى التساؤل عن حاجاتنا إلى تذوق الجمال وإبداعه ؟ فما مقدار تلك الحاجة وما مداها ؟ إن استحكام الجذور البديعية فينا دليل على أن قضية الجمال ليست من كماليات الحياة وليست بترف لايخسر الانسان شيئاً بزواله ! إنها ليست دبوساً من الماس في صدر ناهدولا آنية من الصيني في مغاليق خزانة ولا أردية زائدة في دولاب غني .. إنها جزء من تكويننا ومن مدانا الكياني . تصوروا ماذا تكون عليه الحياة الانسانية لو سلبناها قصائد بندار والمتنبي وسمفونيات فاغنر وتشايكوفسكي وتماثيل فيدياس وميكل انجلو ؟ تصوروا حال الانسان بدون رقص ولا فكاهة ولا ستار مطرز أو ثوب انيق ! إني لا أتصور الجحيم الموعود اكثر قتاماً وحلكة وفزعاً من هذه الصورة القاتمة .

لقد شعر الانسان مبكراً بجفاف الحياة وضيقها وبحاجة إلى توسعتها فداوى ذلك بالفن وعود نفسه ابتكار الجمال . إنه عمل على توسعة اللحظة التي يحياها بأن أدخل عليها عاملاً جديداً هو النظرة البديعيـــة ! إن الزمن الآلي الفيزيائي الذي يقاس بالدقائق والثواني الميكانيكية لايحدد حياتنا وإنما يحددها زمن من نوع آخر هو الزمن النفسي الذي تستطيل فيه الثانية فتصبح ساعة عند الانتظار أو القلق وتدق فيه الساعة فتحول ثانية في لحظات الغبطة والحب .

وإذن فأعمارنا لاتحـــدد بالأيام والسنين الفلكية ولكن بأيام وسنين أخرى تكر وتتطاول في اعماق كياننا النفسي وبامكاننا أن نطيل من تلك الأعمار أو نقصر بقدر ما نبتكر ونبدع أي بقدر نصيبنا من العاطفة البديعية .

ليس هذا فحسب بل إن هـذه العاطفة عنصر من عناصر السعادة . إنها ينبوع فرح مستمر . فكم أخمدت الموسيقى من حزن وأيقظت القصائد من مشاعر . وأولئك الذين يفرقون مشاعرهم اللاهبة في الابداع مثـــل نيتشه وغوته وغوغان وهولدرلن هم وحدهم الذين تذوقوا السعادة العليا التي تبدأ وراء حدود الألم !

والعاطفة البديعية ، إلى هـذا وذاك ميزة إنسانية . وهي وحدها تشعرنا بتعالي الانسان عـلى المـــادة وبسموه عن الحاجة الحيوية فهي عن هـذا الطريق تهذبه وتشذب عواطفه

والانسان كثيراً ما يكون بحاجـــة لأن ينسى لفترة من الفترات أنه حيوان !!

وأخيراً فالحس البديعي ركن من أركان الثقافة . فقمم المعرفة الانسانية حرم مشاع ، وهيكل لافرق فيه بين العلم والفن والدين والعمل لأنها جميعا اشكال من التعبير وصور من الانتاج الانساني ونظرات مختلفة للحياة من زوايا مختلفة . إن نظرية البعد الرابع لاينشتاين فيها من الفن البديعي بقدر مافي السمفونية الريفية أو تمثـــال فينوس - ميلو . وإن نظرية كوبرنيك لاتختلف في قيمتها البنائية البديعية عن هياكل الاكروبول أو الكوميديا الالهيـــة لدانتي أو لوحة الجراح لرامبرانت !

وليس بغريب بعد هذا كله أن نلاحظ أن كل الذين كانوا عظماء كان حسهم البديعي عظيما وكانت عاطفتهم متوعة زاخرة ونستطيع أن نقول عن حروب نابليون إنها قصائد عرمة وعن فلسفة برغسون إنها لوحات غنية الالوان وعن تماثيل آنجلو إنها موسيقى دون أن نبعد في كثير أو قليـــل عن مفهوم الثقافة الأعلى الذي يرى كل المقاييس البديعية تنطبق على نظرية اينشتاين في النسبية انطباقها على سمفونية شهرزاد لكورساكوف أو ملحمة هوميروس !

بل أجرأ على القول إن الطرق العلمية والقوانين الجامدة تشوه نظرتنا إلى الحياة وتفسد فطرتنا السليمة في تلقيها وعناقها

وليس يشعرنا بنبضة الحياة سوى الحس البديعي إذ قـــد يبلغ توتر الحياة أقصاه ويبلغ الشعور بالوجود أقصى درجاته .. في تلك اللحظات يشعر المرء باتصاله الصميمي بالكون كأنما توقع الحياة صدى نبضاتها من أعماقه وفي تلك اللحظات تتكسر إطارات الزمان والمكان وتصبح النفس كلها ينبوع فرح عميق أقوى من الموت .. وفي تلك اللحظات نستطيع أو نفهم بعمق معنى كلمة طاغور :

« كلما فكرت في الجمال يارباه خطرت أنت في خاطري وخلتني افكر فيما وراء الفكر وفي الضباب البعيد .. »

خبر آخر

منذ أيام ، استوقفتني وأنا أقرأ بعض الصفحات لطاغور ، شاعر الهند ، قصة . يقول : كنت على زورق في نهر الغانج وكان مساء جميلًا من امسيات الخريف والشمس قد غربت أو كادت وسكون السماء مفعم إلى حافته بالجمال والسلام . لم تكن على مساحات الماء الشاسعة موجة واحدة بل كانت تعكس كل الظلال المتغيرة لوهج الشمس في الغروب . وهناك أميال

وأميال من رمال الشاطىء المهجور ترقد كأنها إحدى الزواحف القديمة تلمع زعانفها تحت وطأة الالوان . وبينما كان زورقنا ينزلق في سكون بجانب الشاطىء المنحدر الذي احمر من اعشاش سرب من الطيور إذ وثبت فجأة سمكة كبيرة على سطح الماء ثم اختفت وقد عرض جسدها المذهب كل ألوان السماء في الماء . لقد أزاحت فجأة الستار العديد الألوان الذي ترقد وراءه دنيا ساكنة مملوءة بالفرح . لقد أتت من أعماق مثواها السرى ، في حركة راقصة جميلة ، وأضافت موسيقاها إلى نشيد اليوم الزائل لقد أحسست اني حييت تحية الصداقة من عالم غريب اللغة وأنها لمست قلبي بومضة الفرح وفجأة صرخ الرجل الذي عند الدفة بنبرة أسف واضحة : آه ! يا لها من سمكة كبيرة ! إنه لم يستطع أن يرى السمكة إلا من خلال رغبة . فضاع منه حقيقة وجودها كله . لقد احضرت إلى خياله فقط صورة السمكة على الصحن في مائدة العشاء !

ليست أذكر إذا كنت قرأت شيئاً بعد هذه الصفحة فكل ما أذكره أن عيوني جعلت تركض أو تبطىء على السطور السوداء بينما كان خاطري يركض أو يبطىء في دروب اخرى في بعض دروب بلادي العتمة التي يشرق أحياناً بالوحل وتبصق الدم والقتام ! كم رجلاً من أهلي ، ممن يروحون ويجيئون حولي

يستطيع أن يرى في السمكة غير صورتها في صحن العشاء ؟ وكم فيهم من يستطيع أن يرى في رغيف الخبز صورة الحقل الموارب لسنابل وهتاف السنونو اللماح ؟!

أعرف أن الفقر الذي يجرح اضلاع تلميذي من العري ويَعْرق وجه جاري بصفرة الجوع ، هو الذي يمنع السمكة أن تكون غير شواء لذيذ في الخبز أن يكون غير مخدر للمعدة الفارغة وهو الذي يلقي بالحياة في حمأة النضال الحيواني للبقاء .. ويسد الفرح . . ولكني ، سأنسى هذا الفقر — وكيف انسى ؟

لأقف عند فقر آخر يمشي على الفقر الاول ويزيد في قسوته ، فقرٍ ليست المعدة مستقره ولا الجيوب ولكن القلب والروح ! بلى ! « ما بالخبز وحده يحيا الانسان » !!

وهناك خبز آخر يعضنا جوعه هو الجمال ، وتذوق الجمال ! أحسبني أرى الآن من خلال الغيوب عيوناً تستدير بالاستفهام وحواجب تأخذ شكل علامات التعجب ولكني أظل اقول إن الحاجة إلى الجمال هي ايضاً خبز يومي وجوع الروح — ما اقسى جوع الروح — هو ايضاً من مشاكل الحياة ومن نضالها للبقاء !

ونحن في الواقع نعيش في حالة من خمود الحس البديعي

غريبة . فحياتنا بلا مرح عدم ولا اعياد صاخبة ومشاغل اليوم تجرف الرجل مع الصبح الى الكدح والمرأة إلى المطبخ والغسيل فما يتبقى لها من لحظة لتأمل المغيب أو اغنية الساقية . وقصورنا التي ننشئها كالقوالب والعلب ما عليها ظل من زخرف أو مسحة من فن وبيوتنا في داخلها مشعثة بأبشع التنسيق تتجاور في أبهى ردهاتها : السجادة الايرانية والطبق الصيني والمقعد الاوروبي وتتنافر فيها الالوان من كل زاوية . حتى أغانينا الشعبية سخيفة وبعضها بذيء أناني كئيب ! ولقد لفظت الأسطورة أنفاسها وطغت الآلة والسرعة وبدأت الحضارة الصناعية تدخلنا في قوالب التشابه فنحن عن قريب أرقام .. أو انقاف في مفرخة اصطناعية أو ليس يشعر كل منا أنه في دوامة العمل اليومي ، أشبه بالآلة التافهة ؟ وأن دوره في الحياة ليس اكثر من دور تلك الدابة المعصبة العينين المربوطة إلى الناعورة .. في دوران لا نهاية له ! ونطوق شفة على شفة من الملل والحسرة : ونحس ان حياتنا ينقصها شيء ... شيء من كيانها العميق ، ونظل نتساءل ما هو ؟ إنها في جوع إلى الجمال !

والحس الجمالي قدر مشترك بين البشر ، يخفق في رجل الطفل وهو يرقص ، خفقته في رقصة الرجل البدائي ، واصباغ وجهه ، ويتجلى في ثوب المعدم تجليه في قصر الغني وهو يختلف في المنحنى وفي درجة الارهاف . ولا ينمو عفوياً ، ولكنه كالنبتة الوحشية تحتاج إلى التشذيب والصقل والتطعيم والرعاية الدائمة لتسوغ ثمارها المرة ذات الطعم الغريب .

وقلما عني آباؤنا او الذين تربوا منا على الطرق القديمة إلا بالتربية العقلية : باتقان الحساب والجبر ، وتعلم قوانين الفيزياء والفلك ووظائف الغرائز وتشريح الجسم ... اما التربية الجمالية وبصورة اعم التربية العاطفية ، فلم يكن لها من موازينهم من وزن . او لنقل انهم كانوا يخافونها ويرون ان العاطفة عامة امر يجب الحذر منه والاقلال من شأنه . وهل يليق بالانسان الكامل المتزن ، ان تعمر قلبه العواطف الجامحة والنزعات الراقصة ؟ هل يليق به ان يلهو وكل الحياة جد؟ وان يبتذل وقاره بسماع الموسيقى او الاستمتاع بالنكتة ؟ الحق ان معظمنا نشأوا اطفالاً – شيوخاً ! إلا إن علماء النفس المعاصرين تنبهوا الى العواطف وخطرها . وملأوا الدنيا ضجيجاً وهم يثبتون ان ضعف الحياة العاطفية او اضطرابها يؤدي الى ضعف الشخصية واضطرابها .

وان هزة في المشاعر أفضل في تزويق الحياة وتوجيهها من الف مجلد من الحكمة والف برهان من المنطق .

وكثيراً ما رأينا الحياة عند بعض العباقرة تستحيل حساسية مرهفة فقط ، وشعوراً لاهباً حاراً يزدري بالعقل ويتركه وحده يبكي عزلته ومسكنته ! وبالعكس ، فان العصور التي خنقت فيها العاطفة وصلى الناس عليها صلاة الموت ، كالعصور الوسطى ، الاوروبية ، وكعصر إرسطو ، كانت عصور ظلمة قاتمة واضمحلال فكري ، حيوي غريب .

ولعله من السهل الاتفاق على قيمة العواطف في الحياة ، وعلى قيمة العواطف البديعية بالذات . ولكن من الصعب الاتفاق على نوع العناية التي يجب أن تصرف لها ، وعلى طريقة تلك العناية . ويعترض الكثيرون قائلين إن من الناس من تكرهه ضرورات الحياة على أعمال تافهة حقيرة ، لاطيف للجمال فيها ، ولا بارق من روعة : كالعامل في القطار ، أو مصنع الزيوت ، أو أعمال المطبخ والحقل . وان مايصفه الشعراء من جمال هذه الأعمال ليس إلا نزوة من الخيال العابر . والواقع أنها متروعة بالبشاعة والتفاهة ، تلاحقها اطياف الجوع والمرض ومطالب الحياة كما يلاحق العقاب الجريمة .. والعواطف البديعية لاتنمو إلا في جو الهدوء والنعمة ، واللانفعية ثم إن تربية العواطف أمر طويل يحتاج إلى زمن طويل ، ومران أطول . وليس كمثله تعلم الحساب وحفظ النظريات العلمية . وأخيراً فان المواهب الفنية المبدعة قليلة في الناس وكثير من الجهود في تربية هذه العواطف تذهب مع الريح ، كأطياف الرؤى ..

وإذا كان في هذه الملاحظات بعض الحق إلا إنها تخون هذا الحق في شططها . فالجمال ينبع من القلب ومن أعماق النفس . إنا نجده في تفتح الزهرة أو تنسيق الغرفة . وليس من الضروري أن يطرد العمل القاسي الحس البديعي من النفس ، أو تسدل غوائل الجوع والعطش الحجاب على التذوق الفني عند العامل المنهك .

إني أعترف أن عبادة الجمال صورة راقية من صور الحياة النفسية تشترك فيها ملكات النفس العقلية والعاطفية معا وأن تعهدها بالسقيا والرعاية عمل صعب ، ولكن هل تبرر صعوبتها تركها وإهمالها ؟

أما انه ليس للانسان الوقت الكافي للتمرس بشؤون الفن وتذوق معايير الجمال أمام إلحاح الحياة فهذا أثر من آثار هذا الجو الآلي الخانق ، الكاذب .. ولكننا في الواقع كثيراً ما نفر من هذا الجو إلى التأمل والخيال وفي اللحظات الحلوة التي يخلو بها الانسان إلى نفسه ، أين ترى تذهب نظراته الساهمة الشاردة ؟ وفي أي الآفاق تحلق عرائس احلامه .. أهناك غير أفق الجمال؟ ثم إن الانسان حيوان فنان ، عابد للجمال ، مبدع للجمال بقدر ما هو حيوان عاقل أو كما يقولون أحياناً حيوان ضاحك. ومن هذه المسلمات الاولية نبدأ فنجد :

١) أن تربية الفاعلية البديعية في الانسان يمكن ان تنحل في عناصرها الأولى إلى تربية حواسه الممتازة :

تربية العين التي ترى وتنقل الانطباع والاذن التي تسمع وتهتز للحن ، واليد التي تعمل وتبدع فالتربية البديعية هي إذن ثقافة العين واليد والاذن .

٢) لما كان الاحساس البديعي عاطفة ، فإنه يخضع لما يسمى احياناً بالتدريب العاطفي وذلك بأن نحاول غرس العادات البديعية فينا كما تغرس النبتة ، ولنعتد سماع الموسيقى وأناقة الملبس

وتصفيف الزهر في زاوية الصالة ، لنعتد الكلمة الحلوة والمرح الجميل ونذوق القصيدة، فهذا الاطار الذي نزوق بـه الحياة قد يكون أجمل من الحياة نفسها .

٣ً) لنلاحظ الخطر الكامن في أدوار الاضمحلال العاطفي والفراغ النفسي فالحساسية البديعية ـ دفقة من الطاقة تريدان تتحقق وفعالية تميل إلى العمل، ككل فاعلية أخرى . هي طاقة نفسية جاهزة فلنحاول أن نصعد بها لا أن نهبط . إن الحياة ، هذا التيار الوجودي الحي ، يندفع دون توقف وفي حياة أي انسان ، لحظات كثيرة من العطالة ، ومن الفراغ النفسي ، له أن يملأه بالثرثرة في لمقهى والاستقبالات، وبادمان العادات التافهة وله أيضا أن يفعمه بالشعر وتذوق الفن وممارســـة الرقص والترف العقلي .

٤ً) لنعمل على توسيع آفاقنا العقلية والثقافية بالاطلاع والنقد والتحليل فمن هذه الآفاق الرفافة ، الملونة أو الجهمة على السواء ، تتغذى العاطفة البديعية وفيها نجد لفتات الابداع ومجالات الجمال أعمق وأصدق اتصالاً بصميم الحياة وكيان الوجود.

٥ً) لنعش في جو فني ، في جو جميل ، ونحن الذين نخلق من حولنا هذا الجو ، فالحس البديعي يختنق في الاجواء القاتمة الجافة ، كإله نيتشه، يختنق في رحمته . فلذة الجمال هي في استمرار فعل الخلق فيه بل إن هذه اللذة تزداد في سلسلة هندسية متزايدة ـ إن سمح لنـــا

الرياضيون باستعمال الاصطلاح - كلما ازداد تأثرنا به. وتذوق الجمال مران بقدر ما السعادة إرادة .

إن الحياة نفسها يمكن أن تصبح قطعة فنية جميلة لمن يعرف أن يجعلها كذلك . لندع الفنون الكلاسيكية ، الرسم والنحت والشعر .. الخ ، ولنأخذ الحياة كما هي ، أليس في الامكان جعلها أحسن وأروح مما هي عليه ؟

إنا من أجل الفن وتذوق الجمال نقوم بالسياحات الواسعة ونؤم الجبال والبحار ونقيم المعارض ونحضر الحفلات .. أليس في المستطاع خلق الجمال فيما حولنا دون هـذا الجهد العظيم ؟ أليس في وسع كل منا أن يجعل الحياة فناً يحتضن كل الفنون ؟

في وسع كل منا ذلك إن جمـال الحركة وجمال العمل وجمال الكلام تلمع كالنجوم في الحياة العادية السوداء ، وإن تجنب الابتذال والثورة على الاستمرار الرقيب ، وخلق جمل جديدة وإبداع المفاجآت في السهرة وتنوع الملبس وتنسيق البيت كل ذلك يفعل في النفوس ما تفعله العصا السحرية ، في الارض العقيم .

ومن خلال النظرة الفنية والتحقيق الفني ، أي من خلال الحس البديعي هذا الحبز الآخر تتبدى الحياة زاهية اللون كما تبدت غرفة النبي طوبيا عند زيارة الملك له .. «كان الضيف الجميل العجيب المغمور بألوان قوس قزح يتبرج في الغرفة المتواضعة من غير أن يبدل في نظامها شيئاً . ويرى الراؤون من خلال

نوره المتكسر قطع الاثاث البيتي على الحال المعهود من التواضع الهادىء والفقر المحتشم ولكنها سمت وازينت بأشعته المذهبة الزرقاء ».

إن ملك النبي طوبيا واقف بأبوابنا جميعاً فلنعرف فقط كيف نقول له تفضل !

بلد العميان (*)

يا صديقي !

بدأت بقراءة كلمتك الحلوة ، مرة ومرتين وثلاثاً وخمسا ، وكنت كلما بدأت لا اجاوز الاسطر الاولى ، وتنقلني اغفاءة ساحرة الى ليلة لنا هناك ، عبر البحر ، ليلة وحيدة قطعنا ظلامها في مسرح « ماريني » ثم افترقنا . اني لم انسها . او تذكرها انت ؟ او تذكر الراقصة التي كانت ترقص لنا « كارمن » ؟ لا

(*) كتبت للصديق الدكتور أديب الداوودي .

ادري اي خيال شيطان حول مقالك في عيني مسرحاً مضاء وأتى بتلك الراقصة بانسياب ذراعيها وقصائد ساقيها لترقص امامي على الاسطر وتقفز وهي تستدير من اعلى الكلمة الاولى الى رأس الكلمة الجارة ثم تنحدر خفيفة الخطو ، كالحلم الطري ، الى السطر التالي والذي يليه ... وتمر عيني على الحروف السوداء فلا ترى لها معنى .. حتى يعنف البوق ويصاعد اللحن الموسيقي قوياً من نفسي فيتلاشى الوهم واعود فابدأ بقراءة مقالك من أوله ، لعلني اعيه !

اعجبني منك ايها الصديق ان تنكأ الجرح الذي افر منه ، واعجبتني تلك الصورة الفنية التي اعطيتها للحياة الرتيبة التي نجترها في هذا البلد الطيب .. اي فقر فاضح في ان تأخذ يوماً واحداً من جليسك في المقهى فتكرره سنوات فاذا هو كل حياته دون نقص؟ واي قرف في ان تعير هذه الحياة نفسها لاي منا فاذا هي حياته هو ايضاً كلها دون نقص؟ لقد قرأ الكثيرون - ومنهم انا - حياتهم كلها في الذي كتبت . ولكن الا ترى معي ان مشكلة حياتنا ليس انها رتيبة فقط ، ولا انها فقيرة فحسب ولكن انها ايضاً حياة بلا مرح ، وحياة بلا حرية ، واحيانا حياة بلا حس . قل لي هل تحتفل هنا بعيد ؟ اي عيد... ولو بعيد ميلادك ؟ وهل تجد دوماً حولك من يفهمك ويتجاوب مع اللهب الذي يسيل في عروقك ؟ وهل سعدت يوماً بان تمشي او تلبس او تأكل او ترقص او تغني كما تشتهي دون ان

تلتفت اليك آلاف الاعين بالعجب ، وتلحقك ملايين الألسن بالنقد ؟

وتسألني بعد عما إذا كانت الحـــاجة الى الهرب هي من دمشقنا اعنف منها في روما وباريس وموسكو ، لست اشك في ذلك ولكني اتساءل فقط : ألسنا نجد ، حتى في تلـــك الاوساط ارواحاً تتعذب لانها لم تجد الدفء ؟وقلوباً معروقة من الجوع ؟وابصاراً مشرئبة الى اعلى؟ ...والا فمن بيرون وترفايغ وبيراندللو ؟ وما خطب واغنر وبيتهوفن وسيبيليوس ومالبيكاسو وماتيه وغوغان ؟ وفيم تمرد نيتشه وسارتر ؟

لعل الفرق بيننا اننا نهرب من الفقر والمتربة ويهربون من الخصب ، ونهرب لنلحـــق ركب الحضارة ، ويهربون ليكونوا الرواد الاول ، ونهرب لاننا غرباء يطاردنا الانكار ويهربون لكثرة ما يبدعون !

اتعرفها قصة بلد العميان ؟

شتت العاصفة مرة ركباً من المسافرين وقذفت الصدف باحدهم الى جبل تلفعت قمته بالثلج والضباب . ودب المساء ولم يجد المشرد مأوى في العتمة فتدثر بثيابه ونام على الثلوج ولشد ما كانت دهشته كبيرة حين افاق في الصباح فوجد انه تدحرج مع فراشه الثلجي المنهار حتى اذيال السفح المقابل ، وان هذا السفح ينتصب قائماً كالجدار ، شاهقاً شاهقاً حتى كأنه العضادة التي تمسك السماء ان تهوي على الارض ، ولا شعب ولا متسلق . فلا مفر من

الضرب في فجاج تلك الارض ... وقضى بياض يومه بالمسير حتى آنس قرية وصلها وقد جنه الليل فادهشه الا يرى فيها بصيصاً من نور ، وبهت إذ دخلها ان يجد اهلها عمياً ، كلهم عمى ! عرفوا مقدمه باصابعهم وتقروه باللمس حتى اطمأنوا اليه ، ولم يكن الزائر الضال بحاجة لكبير زمن ليلاحظ ان افكارهم غير فكره ومفاهيمهم غير مفاهيمه. لا اسم للون في لغتهم ولا وجود للنور في عرفهم ، ولا ليل ولا نهار ولا افق ولا سماء ، ولا شفق ولا جمال ولا غواية اعين !... الكون ينتهي حيث تمتد ايديهم والله عندهم حس وحس فحسب ، وجناتهم عسل على الشفاه ونعيمهم غواية جسد ! وهمس في نفسه : اني ارى فيجب ان يرى هؤلاء الحقيقة مثلي ، ويجب ان تنتهي الضلالة السوداء في هذا البلد ! ولكنه حين تحدث لاحدهم عن العيون والنور ضحك منه طويلا وانصرف . وحين تحدث للثاني عن زرقة السماء وبياض الثلج وحمرة الورد ازور عنه ولم يفهمه ، وحين استوقف الثالث يريد ان يحول الاله من حواسه الى قلبه غضب وانتهره بل غدا الناس يشكو الكائن الغريب الذي يقول مالا يعقل ، وتجمع الجمهور حوله يسفهونه ويردونه عن غايته ! انه ليس من المعقول ان يكون افهم من تلك السلالات السابقة من الاجداد التي اقرت ميتافيزيك البلد ونظمت مفاهيم الكون وحددت التقاليد . وهؤلاء الذين حوله ؟ اهو اقوى منهم لمساً او ارهف حساً ؟ فليقدم لهم إذن قطعة من النور او قنطاراً من

السماء او امتاراً من الافق أو فليضع في ايديهم او عند انوفهم شيئاً من إله قلبه !! ولكنه لم يكن يستطيع ان يجيب باكثر من ان له عينين وانه يرى !!

لم تمض ايام حتى كان الله في عليائه يشهد القرية جميعاً خارجة وهي تلعن وتصخب حول « ذي العينين الذي يرى » لتوصله الى التل القريب بعد ان ألقت على كتفه خشبة الصلب!

يا صديقي !

إنك غريب ومتهم . إنك ترى . وهذا عيبك هنا كما هو عيبي ، وعن قريب سيلقون على كتفك خشبتك كما يلقون خشبتي ليصلبونا على جلجلتهم بين اللصوص ، وعلى الرؤوس تيجان الشوك ! فاذا وجدت اخاً حبيباً يؤثر السلامة فانصحه ان عصفت به الثورة ألا يصانعها ، وإذا غنج له الافق الغاوي الا يغو ، وإذا وقف المركب ينتظره الا يركب إذ انه سيفتح هناك على الضفة الاخرى عينه فلا يستطيع حين يرجع ان يغلقها وستعضه بقية عمره السير والقيود وحمحمة الغوغاء وجحيم الاحساس . انها تفاحة جدنا آدم تلك التي عضضناها انت وانا فاخسرتنا فردوس الطمأنينة والسعادة السلبية واعطتنا مقابل ذلك الجحيم الابدي و وإني لا اكاد اتصور جحيم ربي ناراً ولهباً ولكن قلق روح ولا اكاد اعتقد انه مشواة جسد ولكن حياة بلا مرح !

إن الصيحة التي ختم بها غوته حياته « النور! اكثر فاكثر من

النور ، ستظل لهاثا لا يرتوي على ثغرك وثغري وعلى ثغور كثيرة اخرى عبت مثلنا من الكوثر الحرام وما تزال تهفو لجرعة من مثله . نعم ستظل لهاثا وهربا واسطورة حتى ينتصر النور !

يا صديقي :

دعوتك للهرب ولكنها كانت دعوة يأس عابر واعترف لك اني قد لا اقرها اليوم وقد افضل عليها دم الشهادة ! ان من خصائص الفكر الحي ان ييأس تارة وان يؤمن اخرى لتزداد انطلاقته عنفا وبطولته سموا . ان الشيء الوحيد الثابت في نفسي كما في نفسك هو الثورة . وسنلتقي يوما ما على طريق واحد مضمخين بالدماء . ولا فرق بين ان نكون منتصرين او مغلوبين ، قائدين او مقودين للموت ! شيء واحد فقط يحفظ لي الامل ويوحي بالغبطة هو ايماني بان اللهب الذى يذيبني حرقة لحياة اخصب وانبل واكثر بطولة ، هذا اللهب لا يحرق شفتي وحدهما ولن ادعه — وحياتك — يحرق شفتي وحدهما ... لن ادعه !

مع الأساطير

أتود الهرب ؟

وراء هذه السطور نفس آبقة وروح تحاول الهرب مثلك ، مثل أخيك وصديقك ، مثل آلاف غيرك وغير اخيك وصديقك وقد وجدت في عالم الاسطورة الضبابي حضناً دافئاً تتمرغ على ضلالاته وترضع ثديه الغني المتمرد ، ولكن الى لحظات عابرات .. فلعلها لن تستقر عند ذلك الحضن ولا عند ذياك

الثدي . فالهرب هو ضالتها لا المأوى ، ولذة الفرار هي التي تغريها لا الدفء الوقح الذليل . وحين بدأت لعنة القلق تسوقها وتطاردها ، أؤكد لـــك ، أنها لم تسألها الى أين ؟ ولا أيان تلقي العصا ؟

فان كنت مررت بهذه التجربة فاشرب معي من هـــذه الواحة السرابية الغاوية التي شربت منها ذات يوم ، من الاسطورة !.

عالم الاسطورة ، ذلك العالم المجنح نحن شدناه من أفواف الزهر ورفة الفجر ، من ضلال المنى ونثير الرؤى ، من اجنحة النسور واغراء اللانهايات . وقديماً هدهدت بـه شهر زاد ثائرة الملك شهر يار لا ليلة ولا ليلتين ولكن الف ليلة وليلة فشغلته عن ملكه وعن ثأره لدى النساء وعن عنقها ان يامر بقطعه حين كان يدركها الصباح وتسكت عن الكلام المباح .

إن الانفصال عن الواقع وتناسيه بل وتخطيه حاجة عنيفة ملحة يشعر بها كل انسان لأنه انسان . ولو رجع كل منا الى نفسه أليس يذكر أنه جلس مرة او مرات لوحده فنظر لكن في احلامه ومناه ، وابتسم لكن لبنات وهمه ؟

لنمارس هذا اللعب معاً ، فالوهم للعقل كالعيد للحياة : تمرد على النظام الرتيب الذي لايقبل نشوزاً وخروج عـلى المنطق القامي الذي يقول بالممكن وغـــير الممكن ، وكسر للتقليد الدائم الذي تجتره النفس اجتراراً وتخنق العادة جماله شيئاً فشيئاً . وإني لأذهب الى أبعد من هذا فأزعم ان الحاجة للوهم والاسطورة

هي علامة الانسانية . فالانسان هو بين الحيوان والكائنات جميعا ، الوحيد الذي نجد عنده الوهم والذي يخلق الاساطير . وتراث الانسانية من الوهم والخرافة والقصص الخيالي اكبر من تراثها من الحقائق ولعله أحب اليها أيضا .. ان قيود الاحساس على مايظهر وحدود النظر واللمس والمنطق والحس تدمي الروح بضيقها وتخنق وثبة الانعتاق من الجسد وسجن المادة فيأمن الانسان الى هينات الخرافة ووحي الرؤى طائعا مختاراً .

من رأى منكم الى النرجسة منحنية على ضفة الغدير تتمرى على مائه ؟ كم تتوشى الحياة لو رأينا فيها لازهرة من كأس وتويج وغبار طلع ولكن ماتراه فيها ، اسطورة الاغريق من انها هي نركيسوس الفتى الذي دله الآلهة بجماله وتام العذارى بنضارته ثم نظر مرة إلى صورته في الغدير فبهرته لاعين الوطف والثغر كالاقحوانة المتفتحة فعشق نفسه وتصباه خياله وحاول القبلة فغطس وجهه في الماء مرة بعد مرة وبقى في مكانه أياما وأياما يذرف الدمع حتى ذوى عوده ولما جاءت عرائس البحر لدفنه لم يجدنه ولكنهن وجدن زهرة من ازهار النرجس منحنية على ضفاف الغدير تنظر في خيالها وتذرف الندى قطرة قطرة !.

ولمحة البرق ؟ أرأيتم اليها ؟ لاتصدقوا أنها شرارة كهربائية بين سحابتين ، موجبة وسالبة ، إنها سياط ملائكة إلا له يزدان

تلهب ظهور شياطين الظلام ! هكذا تقول الاسطورة الفارسية.

والموت ؟ من ذا الذي قال إنه لا يمكن قهره ؟ إن قوة الحب تغلبه . هذا اورفيوس صاحب القيثارة المرنة اختطف (بلوتو) منه (في الاسطورة اليونانية) حبيبته يوريديز لتسليه في مملكة الظلام فاقبل اورفيوس يبكي في كل فج وبعد ان كانت اوتاره نبع الفرح غدت آهات حمراء كالدم الفوار .. حتى الآلهة بكت له فدلته على طريق الآخرة عبر انهر الآلام والنسيان والتطهير .. لقد عزف لنوتي تلك الانهر فزلزل عواطفه وعزف للماء فهدأ وتطامن بعد ثورة وموج ، وعزف لبلوتو الجبار فاعاد له يوريديز .. لكن أورفيوس أخلف شرطه مع الاله . اشترط عليه الاله الا ينظر إلى فاتنته الا بعد الخروج من مملكة الظلام ولكنه أوجس خفية حين لم يسمع وقع اقدامها وراءه وهما في العدوة الاخيرة من الطريق فالتفت . ولكن ليرى حبيبته تستدير عائدة مودعة !.

لقد عاد آورفيوس إلى الدنيا يبكي وما تزال الاشجار تردد كلما اهتزت والمياه كلما خرت الاسم الذي كان يردده على قيثارته : يوريديز ! يوريديز !.

نبأ للعقل

تلذنا الاسطورة ، لاشك ، وتغرينا ، وتدب فينا دبيب النشوة في العروق الظامئة . فما مبعث تلك اللذة ؟ وأي خمرة تسكبها مع الوهم ؟ وإذا اتخذنا اللذة دليلا على وجود الحاجة

الطبيعية فما سبب هذه الحاجة إلى الوهم والاسطورة لدى البشر؟ قد نخطىء ونضل الدراسة حين ندرس بتفكيرنا الحالي أصول الاسطورة . فعصرنا المادي هذا لن يعطينا سبباً معقولا لتلك الرؤى والتراكيب اللاعقلية . ولعلنا نكون اكثر توفيقاً لو تذكرنا ان الاسطورة استجابة لحاجة طبيعية شعرت بها كل الكائنات الانسانية على السواء وانها ظاهرة عامة وجدت لدى جميع البشر لاينفرد بها شعب دون آخر وانها اخيراً مختلطة دوماً مع الحياة لاتنفصل عنها . وعلى هذا فهي مشكلة نفسية في الاصل وعلينا ان نرجع الزمن القهقري عبر القرون الى الامم الاولى والى الشعوب البدائية خاصة . بل نرجع الى ابعد من هذا ، إلى الوقت الذي بدأ فيه الانسان انفصاله عن الحيوانية ، اي الوقت الذي بدأت فيه القوة العاقلة تتكون لديه ، نرجع لنرى الى الاصل النفسي لهذه الرؤى والاحلام الضالة ونسأل عنه عن السبب في ظهور الاسطورة عند الانسان بذلك العمق وذلك الشمول ؟ (١) .

---

(١) وجدت مدارس كثيرة لتفسير الاسطورة : فالمدرسة الانجيلية ترى مع الاب (بانييه) انها الشكل المشوه للدين والمدرسة التاريخية ترى فيها ذكريات الحوادث الاولى والافلاطونيون قديما (ويساندهم حديثا كروزو) يرون فيها رموزاً وافكاراً ، كما ان ماكس مولر وكوهن وجماعة اللغويين يفسرونها بحوادث اللغة . وهناك المدرسة الانتروبولوجية والايقونية والنفسية والدينية .. وخطؤها جميعاً انها تقف عند وجهة نظر واحدة لاترى غيرها او تعالج ظاهر المشكلة من ظاهرها دون ربطها بالحياة .

يخيل الى أن العقل ، هذا الذي يحمده الكثيرون ، والذي ميزت به الطبيعة الانسان وأيدت به حريته (مقابل الغريزة التي اعطتها للحيوان وأوقفته عند آليتها وسرمنتها) يخيل الى ان هذا العقل كان السبب في وجود الوهم الخرافي والأخيلة الاسطورية لدى الانسان فالعقل حين حل بالكائن الانساني أتى اليه في الوقت نفسه بالمشاكل الكبرى ، بالمأساة . نصب عند ناظريه ، عيناً لعين : مشكلة الموت الحتمي الذي لا يمكن تفاديه ومشكلة المرض الذي قد يقع كل لحظة ، وعلمه الممكن وغير الممكن واوحى له بالقدر المحتوم في الوجود وحركه للسؤال عن مظاهر الطبيعة ما معناها ؟ وما بدؤها وما منتهاها ؟ وايان لقياها ؟ وبعثه على الشعور بانانيته وبشخصيته وعلى الة فرديته ونشلها من تشابه المجموع الذي هو منه .

إن النبات يتفتح ويزدهر ويذبل في هدوء وطمأنينة لا تعكرها عاصفة ، والحيوان لا تهمه إلا اللحظة العابرة من جوع وعطش ، وحتى الانسان نفسه ، بعد نزهة او جولة أو قطعة موسيقى يهدأ وينسى . ولكنه حين يفكر تبدأ ظلة نفسه بالتفجر وحين تهدر الآلة العقلية في دماغه يبدأ شقاؤه وتبدأ مأساته .

ولعل المتنبي وقع في هذه التجربة حين قال :

« ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ! »

إن هذه المشاكل لا تعرض للحيوان ولكنها مأساة الانسان وحده ، هذا الحيوان العاقل — كما يقولون — وعلى

هذا كان لابد للحياة من ان توجد توازناً في نفس هذا الكائن ولا بد لها من الثورة على هـذا العقل الهدام الذي يهدد الفرد والمجتمع وذلك بخلق وقائع مزورة وحوادث زائفة واوهام لاعقلية تقابل قـوة الواقع ومرارة الحقيقة وهـــذه الاوهام الزائفة هي الـــتي صاغتها الانسانية أساطير وخرافات تنتصر لعجزها وتعكس رغباتها اللاشعورية . وهكذا ما كاد الانسان يصبح إنساناً أي حيواناً يتحلى بالعقل (أو كائناً ذا مأساة) حتى غزتـه الاوهام « واضحى الكائن العاقل في جوهره كائناً متوهما بطبيعته » وإلا أفليس من الغريب – كما يقول برغسون – ان يكون الانسان هـــو الكائن الوحيد الذي وهب العقل والوحيد الذي يربط وجوده في الوقت نفسه بأشياء غير معقولة ؟

وعلى هذا فوجود العقل بسيطرته وبقسوته هو الذي جعل التوهم والاخيلة المركبة والابداع الاسطوري تنبع من فعالية أصيلة في النفس الانسانية او من وظيفة من الوظائف النفسية – الحيوية في الانسان. نستطيع ان نسميها (بالوظيفة الخرافية) ونستطيع لحد كبير ان نعتبر هذه الوظيفة رد فعل تقاوم بـه الطبيعة الاخطار التي تنشأ عن تحكيم العقـــل وحده في الحياة وكفة التوازن الاخرى التي تلجم العقل الجموح و « تمسكه عن عن الايفال بعيداً في النتائج التي يستخلصها من التجربة الحقيقية » ومن الواقع .

ألا تباً للعقل ولقسوة العقل وألف تب !

كأس كوكتيل

وإذا كنا نسمي الانسان بالحيوان العاقل لان ما ندعوه بالعقل هو الذي يسبغ عليه صفة « الانسانية » فانا نستطيع بالطريقة المنطقية نفسها دون كبير خطأ ان نسمي الانسان بالحيوان الواهم ايضاً . أليس التوهم خاصة انسانية ؟

ولن اعرض بعد لكل وهم تفجرت عنه الاخيلة ، ولكل رؤيا انحسر عنها الفكر فثمة بين التوهم « الحلم » والاسطورة من الفرق ما بين رمل الجبل وصخره ، وبين القصر المشيد الممرد ، وثمة مراحل كثيرة يجتازها الوهم قبل ان يصبح « اسطورة » اي قبل ان يصبح رؤى منظمة منسقة ينتظمها الخلق البديعي كما انتظم السلك حبات العقد ، رؤى ارتفعت عن ان تكون اضغاث احلام لتصبح عالما كاملا مزوقا ، قد لا يكون منطقيا او لعل خاصته الاساسية انه يتمرد على المنطق والواقع ولا يستهدف سوى الاعجاب والراحة واللذة الفنية .

إن الاسطورة من الوهم بمثابة الزهرة من النبتة ، اي هي نهاية تطوره واجمل ما فيه ، ولهذا كان تركيبها معقداً مركبا يتأبى على التحليل والتبسيط . إنك تدخل منها في غابة سحرية تتبدل ، دون توقف ، معالمها ومواقع دوحها ومنطلق شعابها ومهوى اوراقها وزهرها وطيورها وصرير الصراصير !!

إني كلما قرأت اسطورة شعرت كاني اعب النشوة من كأس

« كوكتيل » ... كوكتيل من إشارات الاستفهام ومن النوازع الكبيتة اللاواعية ومن المثل العليا والذكريات السحيقة القدم ، سجلتها على نفسها وبنفسها الامم المختلفة. تستوي في ذلك شعوب اللابس واليونان او زنوج الزولو وتستوي الشعوب الاولى في التاريخ والاخيرة. وإذا كانت دراسة الميتولوجيا طريقة حقا فمن هذه النافذة التي يطل منها الباحث ، على نفسية كل شعب عارية صادقة صريحة فيعرف مدى نظرته الى الحياة والكون وعند أي برزخ يقف مثله الاعلى وفي اي درب من دروب الفاعلية تتدفق مناه .

قد تلتقي الاسطورة هنا بالدين في صوره البدائية بل كثيراً ما خيل إلي وانا اجتلي ملامح الاولى اني اتلمس ملامح الثاني وامس عن قرب جوانبه . فالدين كذلك تطلع رفيع الى المثل الاعلى وسمو لما وراء الذات وموقف من الحياة ومن الكون ويزيد في قوة التشابه في الجوهر ووضوحه ذلك الترافق التاريخي الذي كان ابطال الاساطير فيه هم في الوقت أنفسه آلهة الاديان فاشتبك الحس الديني بالوظيفة الخرافية ، وبالرغم من أن كثيراً من الباحثين يرفعون العاطفة الدينية او ينزلون بها ، لا ادري - إلى مرتبة الغريزة غير انهم لا ينسون ان يربطوها بالاسطورة او يربطوا الاسطورة بها . لكني ارى ان الدين وان كان يشغل جانبا كبيراً من فعالية التوهم عند الانسان ويملأ فراغ الوظيفة الخرافية عنده الا انه لا يستطيع ان يفسر

وحده كل ما انتجه الانسان من اساطير ، فثمة منها ما هو على هامش الحس الديني كالاهداب له ومنها ما ابدعه الانسان لذاته ووضع فيه خلاصة موقفه من الوجود وكيفية تصوره للبطولة وتغلبه على المأساة الانسانية ومدى تطلعه لخلق الانسان المتسامي على ذاته بالبطولة .

ولا شك ان الانسان في غالب الاحيان كان يعبد ما ابدع من وهم ، تماما كما فعل بغماليون المثال في الاسطورة اليونانية المعروفة حين اعمل ازميله الحنون مرة في قطعة من الرخام ليصنع تمثالاً لفينوس ربة الحب وروعة الجمال فلما فرغ من لفتة الحدقتين وتكوير الثديين وتمليس الردفين وتنعيم العقبين والقامة الممردة الغاوية ، وقف خاشعا يصلي امام التمثال السوي قائلا : تكلمي ايتها المعبودة !

لكن الانسان مثل بغماليون لم يعبد كل ما ابدع ولكن اكمل ما ابدع وعنده كما كان عند بغماليون تماثيل واصنام عديدة واساطير كثيرة ليست كلها للعبادة وقد اودع فيها صبوات فكره ومنى نفسه ونزعات وجدانه العميق ...

وسانتقل بقارئي في غابة الاساطير السحرية لنتذوق ثمارها العصية ونغص عن شفاهنا رحيقها الشره . ومن الضروري حين نتذوق الاسطورة ان نوقظ عاطفتنا الفنيه وحسنا البديعي فقط ونلقي بالمنطق في وجه ارسطو وبالعقل في سلة المهملات . ذلك ان الاسطورة ترقص امام عبوس الفكر المنطقي للموت رقصة

السمكة اخرجت من الماء وانما تبدو روعتها بقدر ما تتنكب نهج العقل وتمد بلسانها له .

ولا يدعين احد منا انه لا يتذوق الاسطورة او لا يتصباه الوهم . اذا ادعى لك فليذكركم مرة في دار السينما شارك بطلة الفلم رعبها وكم مرة مسح دموع الحزن من عينيه وكم مرة سمع جاره ينبه الضحية لرصاصة تكاد تنطلق او صفق — في سره على الاقل — لنجدة وافت في الوقت المناسب !

وما هذا فينا بغريب انه إرث من ايمان الانسان القديم بالخرافة وبقية من تلك الرعشة العميقة التي كان يواجه بها اجدادنا الاسطورة التي صاغوها بانفسهم كلمة كلمة ، وهو اخيراً الصورة الاخيرة المتخلفة عن الركب من صور العقائد الانسانية الاولى . .

ديدالوس

سانتقل بقرائي بين اساطير الامم ، وسأحاول في هذه النقلة ان ابرز بوجه خاص صورة الحياة اللاواعية في كل امة ومدى تصورها للبطولة في الوجود ، وكم وددت لو كان لي شيء من سلطان سليمان او صحبة مع ملوك الجان إذن لطلبت للقارىء بساط الريح في هذه الجولة البعيدة . او لطلبت له بساطاً من نوع خاص لا يطوف به البلدان والآفاق فقط ولكن يخترق به حجب القرون والسنين إلى الماضي ايضا ، بساطا يطوى الزمان طيه للمكان ويقف بنا اول ما يقف على

تل الآكروبول في اليونان ، ذلك التل الذي يتطلع في شماله البعيد الى قنن جبل اولمب ويشرف بين يديه على آثينا .

قبل خمسة وعشرين قرنا كان ذلك التـــل وما حوله من البلاد يعج بعالم رفاف من الآلهة وانصاف الآلهة نثره الخيال الشعبي الفنان في جنبات اليونان عند كل قمة وفي كل غيمة وشاطىء وغسق ، وعبر به عن تشاؤمه الأسود وعن موقف البطولة الذى يجدر بالانسان ان يقفه من القدر الشرس القاهر . والبطل في الاسطورة اليونانية يواجه قدره ويحمله مهما كانت رهبته . ولا يقيم وزنا للاخلاق . إن الآلهة نفسها لا تأبه لها! ولكنه يمضي في الحياة بارادته الى النهاية الفاجعة المطرزة بالدماء وهو بهذا وحده يتسامى الى مرتبة الالوهية التي لا تبعـــد كثيراً عن سوية البشر ، بل هي قاب قوسين او ادنى من مستوى الارض والانسان . ولو شئت ان اختار بعض النماذج من البطولة اليونانية لوقعت في حيرة سلفي المرحوم (خراش) الذي تكاثرت عليه الظبأ فما يدري خراش ما يصيد . وايا التقطت من النماذج فاني مطمئن الى اني ساقع على طريف من الحديث وجميل .

أسمعتم بديدالوس ؟ رمز الانسان الذي حاول التحلل من قيود الارض والطيران الى السماء . كان ديدال اشهر نحاتي آثينا ، لم يكن فيها ابرع منه ضربة ازميل ، حتى كبر ابن اخيه برد كس ففاقه في فنه واضحى الرخام الذي يمر تحت يديه

يحرك عواطف الآلهة ويقرأ فيه الشاعر القصائد ، والموسيقي الالحان ، والمتأمل رعشة الحياة ، فنخر الحسد قلب ديدال وزين له ان يتخلص من ابن اخيه بقتله . وانفذها ديدال إذ اخذ بردكس في نزهة على الشاطىء الصخري السحيق ونهز منه غرة فدفعه إلى اليم . . . نعم ! لقد تلقفت الآلهة جسم الفتى واخذته اليها . لكنها ارسلت وساوس الهم والرعب تطوف حول رأس ديدال ، كالخفافيش الجارحة السود ، تطارده اية سلك . وسأله الناس بفضولهم الماكر عن ابن اخيه ؟ وتساءلوا فيما بينهم عما يمكن ان يكون جرى له . . فاختار ديدال الفرار من نفسه والفرار من بلده : حمل ابنه الصغير ايكاروس ولحق بصديقه ملك كريت فنزل في قصره مكرما . وبنى له (اللابيرنت) ذلك التيه الذي لايخرج منه امرؤ دخله ! ولكن جمال الملكة اغراه وهو المولع بالحسن والجمال فخان صديقه في أهله وعلم الملك بالامر فسجن الفاسق مع ابنه في حجرة ضيقة لايرقص لها النور إلا من كوة مطلة على البحر الرهيب العميق !

لن احدثكم عن سجن الاب الشيخ ولا عن بكاء الابن الفتى ، ولكن عن تلك الفكرة العبقرية التي التمعت في الرأسين الفنانين وهما ينظران مرة الى طيور البحر الحرة البيضاء . . لماذا لا يصبحان هما ايضا طيرين ؟ لماذا لايكون لهما هما ايضا جناحان ؟ وسرعان ماعمدا لتحقيق الفكرة : رشيا حارسهما ليقدم لهما ريش الدجاج والبط والاوز الذي يلقيه قصر الملك

وادخرا الشموع التي تضيء ليلهما السجين الطويل . وثبت ديدال الريش في الشمع وصاغ بمهارة الفنان الصناع زوجين من الاجنحة القوية يكفي كل منهما لحمل قبضة من الرجال ، ولكنه لم يرض ان يمنح ابنه الاجنحة قبل ان يمحضه النصح : « بني ! كن دوما قريبا مني اخشى عليك العلو الشاهق فتصهر الشمس شمع جناحيك وتهوي في احضان بلوتو (إله الموت) ولا ارى لك ان تدنو من الماء فانه إن وصل إلى الشمع ايبسه واساقط قطعة قطعة .. لا معارج السماء يابني ! ولا دركات الارض ! »

وفي الصباح التالي انطلق من كوة السجن طيران مرقشان ما رآهما شيخ ولا طفل ولا بطل إلا حسبوهما إلهين ينتزهان فخروا للأذقان سجداً وضجوا بآيات التسبيح ضجيجا !

وشاعت الكبرياء في اعطاف الفتى إيكاروس فارتفع صعداً في السماوات العلى وكان يغريه ان يصغر العالم الارضي في عينيه ويصغر ، ويشوقه ان يسمع وشوشة الآلهة وهمس الافلاك القصية !... أسفا للشباب الغض ! إنها ساعة انتقام الآلهة من ديدالوس ! لقد انصهر شمع الجناحين ومر جسم الفتى وهو يهوى كحجارة الرجم قرب ابيه . وسمع الأب الشيخ صرخة حادة تدوي عند اذنه ثم رأى رقعة من الزبد على صفحة اليم وتصاعد اليه رشاش عال من الماء وصل حتى جناحيه ثم ... سكون عميق !! طفا من بعده الجسم الميت على الماء يحوطه

بعض الريش المنثور !

بندورا

ليس منا من لا يعرف قصة الخطيئة الاولى وحواء الاولى، وليس فينا من لا يعرف الاله الذي دفع حياته ثمنا لسعادة البشر ... ولكن لدى الاغريق حديثا آخر لتلك الخطيئة وذلك الاله . يروون ان الآلهة حين توزعوا تعمير الكون اعطوا الارض للاله بروميثوس ، وخطرت لهذا الاله فكرة عبقرية (او ملعونة لست ادري) هي ان يجعل في الارض انا سي على صورة الآلهة . واستعان ببعض الارباب فهدوه الى الحمأ المسنون فصاغ منه الكائن الاول والثاني والثالث والعشرات والمئات .. صاغهم بشراً سويا تفنن في بناء قاماتهم ونحت عضلاتهم وتركيز اعينهم ورؤوسهم . وفرح الاله بما صنع واغرته صلوات البشر الشكور كل صباح فبدا له ان يزيد في سعادة مخلوقاته بان يقدم لهم النار .. وكانت النار مقدسة ومحرمة على غير الآلهة . ولكن بروميثوس كان مأخوذاً بنشوة المبدعين حين اتى الموقد الاعظم فاخفى قبسا منه تحت ثيابه ومضى الى خلقه ، فبهتهم بما اتاهم وعلمهم ايقاد الجذوة في الحطب الهامد..

وتصاعد الدخان فعلا الافق ، وزحف الى السماوات العلى فدغدغ خياشيم كبير الآلهة (زيوس) في اولمب . وشعر الرب بالخيانة واحمرت عيناه من الغضب فزلزلت الارض

زلزالها واهتزت عروش الآلهة في القنن الثلجية المؤتزرة بالضباب. وهرول الجميع الى « مجلس تأديبي » الهي .

وجيء ببرومیثوس ملطخاً بالوحل ، مغلل الاكف ، ممزق الاهاب والنور. فحكمت الآلهة بربطه الى صخور جبال القوقاز العالية . ويسخر زيوس نسراً يمزق كل نهار صدره ويبحث عن كبده فيهرؤه نهشاً وتمزيقا . فاذا كان الليل بدل كبداً غيرها والتأمت مع السمائم الرطبة جراحه ، ليعود النسر الى تمزيقها في الغداة .

ويل لسارق النار ، من ذا يغالب الآلهة فيخلصه من العذاب المقيم ؟ ان آلاف السنين انقضت قبل ان يظهر بين البشر البطل هرقل بن زيوس فيقتل النسر الشره الدامي ، ويفك اغلال الاله ويعلن تلك الفرحة الكبرى للبشر . ولكن زيوس الذي لا يهدأ حقده ولا يذوب مع الايام غضبه - إلا أمام فتنة الحسان - يقسم ليكيدن للبشر كيدا وليذيقنهم من فرحهم نكراً فيجمع اليه الآلهة ويقرر الانتقام : ان جميع البشر ذكران ، فلم لا يبعثون الهم بانثى ؟ بفتنة انثى ؟

وتبارى الآلهة مسرعين في ابداع هذا الكائن الجديد : هذا يمنحها صلفه وتلك جمالها الغاوي وهاتيك ثرثرتها وذاك حبه وفضوله وذياك .. آه ذياك الاله هرمز منحها قلب كلب ونفس لص وروغة ثعلب وسموها (بندورا) .. حواء .

وحملت المخلوقة الفاتنة إلى برومیثوس هدية غير محمودة من

الآلهة فرفضها غير شاكر. ولكن اخاه ابيمثوس سفه رايه وقبلها ونهل معها من خمرة الحياة الواناً .

وفي احد الايام ارسل الاله الاكبر الحقود الى الزوجين السعيدين بانتقامه : بعث برسوله الى بندورا يحمل صندوقا من الخشب الثمين وقال : انه هدية رب الارباب اليك ، لكنه يشترط الا تفتحيه إلا باذنه .

«ماذا في الصندوق»؟ سؤال ألقته بندورا على نفسها ثم على زوجها فلم تجد له جواباً وقد ظل يتضخم ويتضخم ويلح يوما بعد يوم... وغدت تحس ان الصندوق مغلق على قلبها ونفسها جميعاً. وحاولت مرة ان تفتحه فاستعصى عليها . وزاد فضولها اصوات مبحوحة مكلومة كانت تهتف من داخله « أنقذينا » وعند ذلك القت بالصندوق الى الارض فانكسر وانطلقت في جو الغرفة خفافيش سود ذات مخالب حادة اهوت على بندورا بالعض .. كلما عضها احدهم صاح : انا المرض ، انا الفقر ، انا الجوع ، انا البخل انا القحط ، انا النفاق ..

واسرعت بندورا تغلق الصندوق ولكنها ويا للاسف أغلقته على الروح الطيب الوحيد فيه : « الامل » وارتمت تتوجع من جراحها. بينما انطلقت الخفافيش الى الفضاء الاوسع تعض الناس وتوزع الشر بين البشر .

حين عاد الزوج ابيمثوس فتح الصندوق فانطلقت منه فراشة بيضاء شفت جراحات بندورا بخفقة من اجنحتها وشفت

جراحات البشر وما زالت تأسو الجراح الى اليوم .
انها فراشة الامل .

هرقل

هو ثمرة إحدى مغامرات (زيوس) رب الارباب مع حسناء من بنات البشر . علمت به (حيرا) زوجة الرب بعد ولادته فاقسمت لتتخلصن منه ولتبعثن بـــه الى بلوتو سيد الجحيم . فارسلت اليه في المهد بأفعوانين ضخمين يخنقانه فما هرب أمامهما كما فعل اخوه الصغير ولكنه تناولهما بقبضتيه الصغيرتين الجبارتين وضغط على اعناقهما فاضطربا ثم ارتمت اجسامهما المنسابة هامدة ميتة على الارض بين صياح الخدم ورهبتهم !

بهذا تبدأ قصة القوة الخرافية التي تميز بها البطل الاغريقي الاكبر هرقل ويبدأ في الوقت نفسه صراعها مع مكر الربة الكبرى (حيرا)..

نشأ هرقل وقد ذاب الحديد في عضلاته وتنزل الجبروت في اذرعه وعلى منكبيه ! فما زاد ذلك حيرا إلا نقمة وحسداً . فاوغرت صدر زوجها واستطاعت ، في ساعـــة من ساعات رضاه ، ان تختطف منه وعداً يجعل ذلك الفتى الجبار خادماً لدى ابن عمه النذل امير بلاد ارغوس !

امتحن هرقل اول الأمر بفتاتين احداهما الفضيلة في قدسها والثانية غاويـــة فسوق ، في كل جارحة منها شيطان فتزوج الاولى ولكن حيرا سحرته ذات ليلة فأصابته لوثـــة جنون

ورأى ان جميع من حوله قد استحالوا اعداء له فانقض يقتل ويخنق ويسحق والناس يفرون منه .

ولما صحا من لوثته وجد انه قتل في من قتل زوجه الفاضلة. فزلزلت المصيبة نفسه. وانطلق يريد التمرد على ارادة الآلهة والعزلة . ولكنه يجد في احدى غابات البلوط معبداً صغيراً وما يكاد يمكث فيه يومين حتى يحول رجلاً آخر : فخصيلات شعره الجعد تسترسل واعضاء جسده تتطهر فيحمل عصاه ذات العقد ويزين رأسه بتاج من اوراق الحور البيضاء ويخرج لتحقيق إرادة أبيه الآله الاكبر !

وسوست حيرا لأمير آرغوس أن يكلف هذا الجبار بالاعمال الاثنى عشر التي لا يستطيع ان يقوم بها كثير من الآلهة . فابتسم الامير لفكرة المكر واستدعى إليه هرقل وأمره ان يقتل اسد (نيميا) الجبار وكانت المغامرة الاولى من السلسلة !

بات ليلة في كوخ قرب غابة نيميا فعرف المآسي الدامية التي يرتكبها ذلك الاسد الضاري ذو اللبدة السمراء والجلد الصفيق الذي لا ينفذ فيه سهم ولا يخمشه سنان . فخرج في العتمة الى لقياه وصارعه طويلا فما استطاع هزيمته غير ان الاسد في النهاية فر هارباً ! وعاد هرقل اليه في الليلة التالية فاراد ان يشدخه بسيفه ولكنه ، وهو أمام الشدق الاحمر الفاغر تفقد السيف فلم يجده .. لقد سرقته حيرا .

امسك هرقل بفكي سيد الغاب وضغط فسحقهما سحقاً ثم

اطبق بزوره فخنقه وجره وراءه معفر اللبدة ذليل الجبين بين هزيج الفلاحين ومزامير الرعاة حتى أتى قصر الامير .. وهناك سلخ جلد الاسد وائتزر بها !

وعاد فكلفه الامير بالافعوان (هيدرا) ذي الرؤوس السبعة الذي كان يسكن في مستنقعات (ليرنا) الكدرة النتنة !.

ذهب اليه هرقل فرآه متمدداً وسط الحمأ والصلصال ففوق اليه السهام فانطلقت الرؤوس تتلوى نحوه .. قال هرقل انها سبعة رؤوس ولكن الناس جميعا كانت تعرفها مئة رأس : الشرر يتطاير من احداقها الصغيرة والسم يقطر من انيابها والفحيح الذي يصم الآذان تصفر به ألسنتها التي تمتد أذرعاً .. على ان أرهب ما فيها ان سيف هرقل ما كاد يطيح بأحد الرؤوس حتى نبت بدلا منه في لحظات رؤوس سبعة اخرى !!

لكن هرقل ترك السيف وهجم بهراوته الضخمة على تلك الرؤوس المتلوية يكيل لها الضربات الساحقة بسرعة تجعل المشاهد لا يرى سوى دائرة سريعة الدوران فوق رؤوس الوحش المتساقطة ؟

كان هرقل في الحومة حين أرسلت له حيرا سرطاناً ضخماً يعضه فسحقه البطل بطرف قدمه ! وفي اليوم التالي عاد هرقل لقتال الافعوان وفي رأسه فكرة : أتى بجذعي شجرتين ضخمتين فثبت بكل منهما عموداً من الحديد واحماهما في النار فما يكاد يقع رأس من رؤوس الافعوان على الارض حتى

يكوي مكانه باللظى الاحمر .

بعد ساعات كان الجو قد فسد من انفاس الافعوان المسمومة وكانت المستنقعات قد طفحت وشرقت بدمه المسموم ! وغمس هرقل في الدم أسهمه المصميات للذكرى .

واستمرت مغامرات البطل على هذا النحو فتارة يندبه الامير الحسود لقتل ثور وتارة لخنزير وطوراً لحرب الطيور ذات المخالب النحاسية ورابعة بافراس فاتكة .. حتى كلفه في النهاية أن يأتيه من حدائق الهسبريد القصية بتفاحات هسبريا الذهبية التي تشع في الليل كأنها الكوكب الدري . والتي يحرسها تنين هائل له سبعون الف رأس في كل رأس سبعون الف عين وسبعون الف ناب للسم وله فحيح أين منه زمزمة الجن أو مكاء الشياطين !

لقد اضطر هرقل في سبيل بغيته أن يحارب المارد الجبار أنيوس ابن الارض ويقتله ولان يحمل قبة الفلك الدوار مدة طويلة عن الشيخ أطلس !

إذا انتهى البطل من مغامراته دعاه ابوه إليه فأمره ان يصارع الآلهة . ولكنه ويالعجب يصرعها جميعاً في اولمب امام ابيه ثم يحب ويتزوج ولكن حيرا وكيد حيرا مايزالان بالمرصاد فتبعث إلى زوجه بقميص مسموم تزعم انه يزيد من حب زوجها لها ويلبسه هرقل فيلصق به ويفتت عضله ويحرأ عروقه ويساقط لحمه مزقاً !

تنتهي المأساة بارخاء الستار على هذه البطولة وعلى كل بطولة مهما جلت يقوم بها الانسان !

أوديب

يجب ان تعرف قصة هذا الانسان ـ البطل انه انت وانا في المأساة الانسانية التي نحياها ، انه دموعـك ودموعي ونحن ماضون مع القافلة ... إلى أين ؟ لستاندري ! كما لم يدر اوديب نفسه ! لقد تكشفت له في نهاية حياته كل ألغازه ولكن الآلهة كتمت عنه اللغز الوحيد الذي تكتمه عنا جميعاً : لماذا اشقته ؟ ولماذا ساقت على هذا النحو قدره الفاجع ؟

يروون ان الآلهة حذرت الملك لايوس (ملك طيبة) ان يطلب منها ولداً ، لان هذا الولد سيقتله وسيتزوج امه وسيجر الشقاء الى مملكته .. ولكنها مع ذلك منحته ذلك الولد ! ولما وقف لايوس امام سرير ابنه ارتاع إذ رأى في عينيه كل أقداره السود ترف كمخالب التيتان . فأمر ان يحمل الطفل الى الجبل ، وان يقتل ، وان يلقي مزقاً على الصخور الحادة ! إلا انه لم يدرك ان اشفاقه قد جاء متأخراً وان اللوح المحفوظ قد بدأ يسجل مأساة اوديب التعيس ، كما ارادتها الآلهة ، مأساة مختارة من ملايين المآسي الانسانية المكرورة في كل قلب !

أعطي الابن الملكي الى راعي الملك ليقتله ولكن هذا الجلف أدركته الشفقة ان يقتل هذا الابن الوحيد لملك البلاد. فعلقه من رجله الى شجرة بطرف واد على الحدود البعيدة .

ويتفق أن يمر راعي الملـــك المجاور بالطفل المدلى فيحمله الى مليكه، هدية تثغو وتبكي .. فتدرك الملك عاصفة حنان ويأمر بان يربى الطفل في القصر .

بهذا الشكل تتوفر لاوديب حياة ناعمة هانئة تستمر حتى تمر به الطفولة والفتوة واليفاعة ويبدأ عهد الشباب . وعند ذلك يبدأ أوديب بفهم معنى النظرات الماكرة التي يرمقه بها الناس ويدرك فحوى الهمس الذي ينتقل بين كل فم واذن حين يمر .. إنه يظن نفسه حتى ذلك الوقت ابن الملـــك وولي العهد ! ولكنه يعرف الان انه لقيط ؟ وإذن فما مقامه بهذا المكان الغريب ؟

وذات فجر ، رأى الحراس اوديب يتســـلل من اسوار المدينة ويركض إلى الغابة المجاورة فتبادلوا الغمزات بينما كان الفتى يندفع بكل قوته بين الادغال كأنه ثمـــة نداء بعيداً يستحثه ويلهب ظهره بالسياط .

وفي عطفة من الطريق التقى ببعض السيارة . لعلهم صيادون او قطاع طريق او جماعة من التجر .. لايدري ، ولكن شجر بينه وبين احدهم خلاف فتركه اوديب صريعاً على الثرى ومضى لطيته ، وكان قد وصل الطرف الثاني من الغابة حين سمع صياح رفاق القتيل وجلبتهم وتناديهم ...

دخل مدينة (طيبة) او مدينة في طريقه . وعند الظهيرة، دبت الصيحة بين الناس ان الملك الذي كان يتصيد في الغابة قد

قتل ! وتجمعت البلدة عنـــد الابواب تبكي جثمانه . وبكى اوديب مع الباكين دون ان يخطر في باله انـه هو قاتل الملك وانه يبكي اباه ، وان قدره الاسود الاول قد تحقق !

وادركته اللعنة الاخرى ، حـــين ظهر حول المدينة تنين مخيف يفترس المارة او يحلوا له الغز الذي يـألهم إياه . ولم يكن احد يدري ماهو اللغز لانه ما من مار في تلك الطريق الاعجز عن حله وصرعته انياب التنين . فلم يرجع .

عند ذلك اعلنت ملكة طيبة انها على استعداد للزواج من اي شخص يحل اللغز ويخلص الشعب المحبوب من الفناء . وذهب اوديب بين الذاهبين فسأله التنين :

ـ ما الحيوان الذي يمشي صباحاً على اربع وظهراً على اثنتين ومساء على ثلاث ؟

وألهم اوديب الجواب الصحيح

ـ إنه الانسان .

ودهش الناس حين سمعوا ان التنين نفـذ الوعد التي آلاه على نفسه ، من ان يرمي نفسه الى البحر ان كشف احـد لغزه المعجز ، وعجبوا لهـذا الفتى الذكي الغريب يعود اليها ملكا للمدينة وزوجاً للملكة .. التي لم تكن غير امه !

ومدت الآلهـــة لاوديب في العمر والعمل حتى رزقته باربع بنات وعند ذلك ساقت على طيبة الوان الشقاء والمتربة والعذاب والمجاعة والمصائب . وانصرف الناس إلى المعبد يضرعون

واقبل اوديب على كل عراف يسأله استرضاء الآلهة والعون .
وإذ ذاك افتضح له سر حياته كله !..

وزلزلته المصيبة فأعمى في النار سيخين حديدين وفقأ عينيه وخرج من مدينته تائهاً ، تجره في تشرده ابنته الصغرى .

وعند ذلك قالت الآلهة تمكر به :

— لقد منحنا البركة لاي ارض يرقد فيها جثمانك يا أوديب !؟
اي سخر قاس في هذه المنحة الالهية !!

إن اوديب حين لهث اللهثة الاخيرة على ارض اثينا لم يكن يدمي قلبه سوى هذا السؤال :

— لماذا تشقونني ؟

في بلادي

أرأيت الى تلك اللهفة السمراء التي تراودك حين تفيق من حلم حلو فتغمض عينيك من جديد طلباً لذلك الحلم الحلو ؟ إنها لهفتي الان وانا اترك الحديث عن اساطير الاغريق لأتحول الى اساطير بلادي . وددت لو بقيت مع تلك البطولات الخرافية ابعث منها ايضاً ثيسيوس وهو يخوض التيه ، وبسيشه يلفحها الحب ، ولياندر سابحاً البحر الى من يحب ، وافروديت خارجة بكل انوثتها ونضجها من صدفة البحر ، وددت ... لكن دعونا من بلاد اليونان فهي مغرية الفنون وحديثها ذو شجون وشجون ، وتعالوا معي على بساط الريح الى بلاد العرب والى الاسطورة العربية .

ولعلنا نظلم اسطورتنا إن نحن وضعناها مباشرة بعد تلك الالوان الحصبة الموارة التي تتلفف بها اسطورة الاغريق ولعلها تبدو عندئذ باهتة الملامح وتظهر البطولة فيها كسيحة القوى هزيلة المثل . يجب ان نذكر فقط ان العقلية العربية غير عقلية ابناء هيلاس ، وان ذلك المزاج اللعوب الجري، بين عالم السماوات والاله ذي العرش الاعلى ، وبين عالم الارض والبشر هو أجرأ من ان تحتمله الروحية العربية . إنها عالمان منفصلان عندها اي انفصال . والهوة التي تضرب بينهما لا نهائية حاسمة . وإذا كان لا بد من برزخ يصل ما بين العالمين فان الله العظيم الجبار يصطفي ويختار من شاء من البشر ، ليكون رسوله المجتبى ويحمل اوامر السماوات العلى الى « القطيع الضال » على الارض فاذا نحن تجاوزنا عن مرتبة النبوة التي لا يصلها إلا من أوتي لمحة إلهية من العطف ، فان البطولة العربية تقف عند حد البشر والقوى البشرية لا تجاوزها الى اللعب مع الآلهة والمكر بها ! وهي لهذا لا تتلون بالوان العصور وتتثنى مع لفتات الظروف. فبطولة العصر الجاهلي يذهب بها عنترة الذي كان يضرب بالسيف مرة عن يمينه ومرة عن يساره ويحب ويظل يحب حتى يفوز بحبه، ويذهب بها المهلهل الشاعر صاحب الثارات . وبطولة العصر العباسي يحملها (السندباد) رمز التاجر الرحالة ، وتمثلها (شهر زاد) رمز المرأة التي تسود القصور ، والشاطر حسن ودليلة المحتالة رمز الطبقات الفقيرة الماكرة ، وبطولة العصر

المملوكي تتمثل في الملك الظاهر وشيخة جمال الدين ... ومن اليهم من الابطال المنافحين عن العقيدة والدين .

ولا يكافح البطل العربي القدر ولكن يستسلم اليه في سعادة وطمأنينة لا تدع في روحه اي منفذ للتشاؤم وهو يعلم ان الموت حتم معجل فلا يحاول الخلود كالاله ولكن يريد ان يبقى منه للناس فقط الذكر الحسن :

أماوى ان المال غاد ورائح
ويبقى من المال الاحاديث والذكر !

* * *

وإنما المرء حديث بعـــده
فكن حديثاً حسناً لمن وعي !

ومن هنا تبرز قيمة الاخلاق والمثل الاخلاقية لدى البطل العربي وتأخذ المكان الاول من مقومات البطولة .

أأنا في في حاجة الى الامثلة ؟ لعلي لا احتاجها . فتلك بين الايدي الكتب الاثنان والثلاثون تروي اسطورة عنترة الذي مات في النهاية غدراً — كمامات هرقل — على يد الاسد الرهيص وتلك أمامنا المجلدات الاربعة التي تحمل حديث الف ليلة وليلة قضاها الملك شهريار منصتاً الى شهرزاد ناسيا ان له امرأة خانته وانه اقسم لينتقمن من الجنس اللطيف (المـــاكر !) فيذبح كل صباح المرأة التي تزوجها في المساء ...

ولا ادري من أين تقفز الى خاطري هنا اسطورة عتيقة سمعتها من جدتي وانا بعد طفل فما تغادر مخيلتي : حين تحين نهاية

العالم بأذن الله لشعب يأجوج ومأجوج ذلك الشعب القزم الكافر اللعين السجين وراء السدود الفولاذية التي بناها من حوله الاسكندر ، بأذن لذلك الشعب ان يبري بالسنته ابواب السد ويتدفق بزعامة يأجوج اومأجوج - لاادري - فيطوف الدنيا على حماره الاعرج الذي تعزف في كل شعرة من شعرات ذيله جوقة موسيقية كاملة بطبلها وبوقها وصناجاتها .. ويلحق الناس به مجذوبين اليه بقوة من الشر لا تقهر ... حتى يعود السيد المسيح فيحاربه وينتصر عليه ويملأ الدنيا عدلاً بعد ان ملئت جوراً ..

ان الانسانية كلما تجهم لها الزمن داعبت في خيالها هذا الحلم : حلم المنقذ الذي سيأتي في آخر الزمان .. ولكنها - على ما يظهر - ستنتظر طويلا !

رستم

يقولون إن مهامه الصحراء يستدعى بعضها بعضاً ويجر الكثيب فيها اخاه الكثيب وراءه ، في تشابه لا متناه ، وفي جلال رهيب ... هكذا اراني بعد ان تحدثت عن الاسطورة العربية مسوقاً الى صحارى ايران من صحارى العرب . فتحدثا بالمناسبة عن ابطال كرمان وهراة وسجستان . والبطولة الايرانية قريبة الملامح من البطولة العربية ومن ابطال الجاهلية خاصة فهي بطولة بشرية لا ترقى الى السماء ولا تهبط منها . وروعتها في تلك الفروسية السمحة التي تسيل على حد الظبى وتتعفر دوماً بالقتام . واذا تميزت بشيء فبانها سلالة ارستقراطية

تنتقل بطولاتها بالدم . ومثلها الاعلى حماية النظام القائم وخدمة الملوك فلا التسامي الى السماء يستهويها لان مخادنة الآلهة من وظيفة الملوك ولا خلود الذكر يغويها فحسبها أن تملأ قدرها الجرى . ولما لم يكن ثمة من يتغلب عليها فقد تغلبت على نفسها ، في النهاية ، بان انتحرت ... او هذا على الاقل ما فعلته الاساطير الايرانية ، في قصة :

سام وزال ورستم !

بلغ سام والد الابطال من الكبر عتياً وهو على خدمة الملك منوجهر ، وكانت فجيعة حياته انه لا ولد له . كان ينظر إلى السماء فيرتد بصره مغشى بالدمع . ولقد ذرف الكثير من ماء الشؤون قبل ان يرزق اخيراً بذلك المولود (زال) الذي ولد ابيض الشعر كفرخ القطاة ! وانمسحت بسمة السعادة عن شفتي الوالد حين وسوس له الناس بما يعرفون عن امثال هذا المولود الثلجي الغرة .. إنه من نسل الشياطين ! !

وادرك سام الغم ، ان تعبث به في آخر حياته آلهة الشر هذا العبث الماكر البشع ، فقرر في لحظة يائسة ما قرره ابو اوديب من قبل : ان يتخلص من الطفل بالقائه لوحوش الجبال ..

وفي الجبل مرت العنقاء بالطفل فحملته الى عشها وربته فيه حتى بلغ اشد الشباب وامتلأ قوة وعقلاً ، بينما كان اسف ابيه عليه يزداد يوماً بعد يوم . وتحول الأسف ندامة ثم حسرة ثم لوعة الى ان رأى سام في النهاية حلما فسره له المرازبة بانه يجب

ان يذهب الى حيث اودع ابنه زال من الجبل فيصلي ليرده الله عليه ...

وكان ذلك . وردت العنقاء إلى الأب الملتاع ابنه الوليد: شاباً ضاع الأب بين ذراعيه عند عناق اللقاء !

كان زال يضرب متنزها في ارض إيران حين وصل مملكة مهراب الملك الجار ، ولكنه لم يشأ ان يزوره لان عداوة مهراب لمليكه منوجهر معروفة . فضرب مخيمه بعيداً وبعث يستشير اباه في الزيارة . وخلال الانتظار ولد حب بين قلبين شابين : قلب زال وقلب روذبة بنت مهراب ! عشق كل منهما الآخر بالسمع « والاذن تعشق قبل العين احياناً ! » وتوسل زال بجواري روذبة حتى قابلته ومدت له شعرها حبلا يرقى اليها به ! على ان عاصفة من اللؤم تهب في تلك الفترة وتكاد تخنق امل الحبيبين فان منوجهر الملك ، الالهي المطاع لا يرضى عن هذا الحب الذي سارت اخباره في الآفاق ويأمر الاب الشيخ (سام) بان يقود حملة تفتح بلاد مهراب ، بلاد الحبيبة !

ويصطرع في قلب زال الواجب والحب لا يريد التنكر لذاك ولا يطعه فؤاده بالتخلي عن هذا ؛ فيوفق بينهما باقناع الملك بقبول زواجه من فتاة احلامه ويقبل الملك وتكون ثمرة الزواج اعظم ابطال ايران : رستم !

وينشأ رستم نشأة ابيه وجده في الساعد المفتول والجنان الثابت البطل ، والفروسية التي يزيد فيها حصانه الخاص :

الرخش ! ولقد سرق منه الرخش مرة في بعض انحاء تركستان فلما ذهب يفتش عنه ألقى نفسه في حبائل ابنة الملك هناك : ثمينة ، ثمينة التي ما سرقت المهر إلا لتحظى بفارسه ! ويتزوج رستم منها ولكنه يضطر الرجوع الى بلاده دونها فيترك لديها خرزة زرقاء لابنه الجنين !

ويذهب رستم بعد ذاك لانقاذ الملك كيكاوس من الجن في مازندران ... إن حمق كيكاوس ورطه في الحرب والهزيمة وافقده البصر والحرية معاً ويضطر رستم لاقتحام مازندران وحده. ثم لقتل ملك الجان الذي كان يرقد في مغارته كالتنين العظيم والحيات النارية ترقص حوله ! وانتزع رستم منه كبده الذي لا تشفي عيون الملك من العمى إلا بمسحة منه !

ويقع الملك مرة اخرى في الاسر فيخلصه زال ويخلص ايران كلها من الترك فيعطيه الملك لقب (بهلوان العالم) وإنه للقب لو تعلمون عظيم !

وأخيراً لم يكن رستم يدري ان زوجه ثمينة التركستانية قد ولدت فتى سمته سهراب ونسل الابطال بطل .. وقدقدر الفتى البطل، حين عرف انه ابن رستم ان يحمل خرزته الزرقاء ويذهب لايران فيعزل ملكها ويولي اباه بدلاً منه .. ولكنه يلتقي في الطريق بجيش ابيه رستم وليس يعرف احدهما الآخر ويضطر البطل العظيم لان يبارز الفتى بعد ان اشتهر بأسه ولكنه يكره ان يعرف الناس أن رستم قد تدنى لقتال فتى

تركي فيقدم نفسه على أنه عبـــد لرستم ! ويستمر البراز اياما ثلاثة وكم من مرة ظفر الفتى سهراب بغرة من رستم فكاد يغتنمها لقتله ثم لايدري ما الذي يمسكه ؟ إلى ان يفوز الاب اخيراً منه بطعنة محكمة ويصبح معها عن عادته صيحته المعروفة « رستم ! » وعلى دفق الدماء والدموع يتعارف الاب بالابن ولكن في لحظة الوداع الاخير ..

هكذا تنتهي سلالة الابطال على يـد الابطال انفسهم فيما يشبه الانتحار لانـــه لم ينتصر ولا يجب أن ينتصر على البطولة أحد !

المهابهارانا

أراودتك نفسك يوما ان تصادق إلهـاً او تعابث إلهة ؟ اجربت يوما ان ترى في بعض هـذا البشر الذي حولك اربابا متنكرين وارواحا قدسية من السماء تقمصت في جلود الارض؟ والبلابة التي تزحف إلى شباكك ، هل خطر في بالـك يوما انها قد تكون إلها يمد اليك خده ؟ هذا وامثاله كثير في الهنـــد فالآلهة في تلـك الديار تتنازل إلى التراب الارضي وتتقمص اجسوم البشر وتعمل بايديهم وتنظر بعيونهم . فاذا تجسدت أمامك بطولة من البطولات في قمري ، او طفل ، او في نبتة على حافة الوادي فحاذر ان تزدريها فقـــد تكون مقلتا الاله تطلان منها ! قد تكون ! وسل اساطير الهنـد اذا شئت فان لديها من ذلك انباء عجابا !

لقد خرف الخيال الهندي كما خرف غيره من اخيلة الامم واكثر خرافات الهند شأنا واقواها تجدها في ملحمتي المهابهارتا والراماينا وهما من الادب الهندي بمنزلة الالياذة والاوديسة من الادب الاغريقي . ويخطر في بالي هنا ان أبث المشابهة هنا حتى مدى بعيد فالتشابه في اساطـــير الشعبين غريب وإنك لتتقرى في ملامح كثير من ابطال الهند ملامح ابطال الاغريق وتلمح في بعض اعمال اولئك طيفا من اعمال هؤلاء . وتجد في (باندو) و (بيروبكشا) زمـلاء انداداً لهرقل وثيسيوس واوديب ! وتجـد التشاؤم الاغريقي والنظرة السوداء للحياة وأولية الالم في الدنيا واضحة في الفكر الهنـــدي ، هاتفة في الاسطورة الهندية وضوحها وهتافها في آثار اليونان .. لكني لا أجاوز هذا الحد في بث التشابه لان ابطال الهند يرعون المفاهيم الاخلاقه ، ويؤمنون بنقاء الروح وبالتفريق بين صالح الاعمال وخبيثها ؛ وابطال الهنـد لايصرعون القدر ويؤثرون الاستسلام (النرفاني) الزاهد له وليس كذلك ابطال هيلاس ومخلوقات هوميروس !

وبعد فاني لم اقرأ ولا استطيع ان أحصر (المهابهارتا) الملحمة التي تحوي (٢١٥) الف بيت من الشعر ! ولكني اقتطف مما اعرف منها نتفاً ولمحا . تقوم الملحمة على قتال الاخوة الخمسة (الباندوا) مع الاخوة المئة (الكوروا) . وقـد انتصرت الكثرة على القوة وأطل دم الباندوا فانطلقوا الخمسة يضربون في

فجاج الهند للمغامرة .. ومن اروع مغامراتهم قتالهم لعفاريت الغاب المفسدين الذين يتصورون بمختلف الصور فتارة هم تصب على ضفاف الغدير بعزف الالحان وتارة هم اطيار في الجو من القمارى والسنونو والغربان وتارة هم اثار مرة او فراش مزوق كان اروع الاخوة في قتال العفاريت (بهياسينا) ذو الذراعين الطويلتين والبطل الذئبي .. فلقد استأصل العفاريت واغوى بناتهم بجماله ونال جوائزهم في جميـــع مباريات الفروسية ولقد التف به مرة ثعبان هائل أقسم لايتركه حتى يحل (بهياسينا) أغلاله – كما فعل الغول مع اوديب فاستطاع البطل ان يتخلص منه بقوة بيانه وان يقتله كمداً ! أما اخوه (ارجنا) فقدقرر ان ينال بالزهد درجة إله في السماء فالتزم الحمية واغتذى بالهواء وجافى الاوراق وبقي واقفا على ابهام رجله رافعا ذراعيه في الهواء حتى ازعج مجلس الآلهة . وقد اتفق له من البأس ما حارب به الآله (شيوا) الذي كان متنكراً في صورة صياد .. وانتصر عليه النصر الذي انتصره هرقل مرة في اولمب !

وفاز احد الاخوة الخمسة بابنة احد الملوك لأنه ثنى قوسا لم يستطع انسان ثنيها وخرجت الآلهة من منازلها السماوية تشهد عمله ! وقد غدت الفتاة زوجة لهـذا الفتى ولاخوته الاخرين جميعا . وكانت معهم حـــين عادوا لحرب اخصامهم القدماء (الكوروا) المئة وحين ثأروا لأنفسهم منهم .. وسحوقهم كالديدان !

واخيراً ! يحس الاخوة الخمسة بدنو الاجل وتدب الشيخوخة في دمائهم فيعتزلون العالم في بعض جبال همالاية حيث تفيض ارواحهم هناك على الصخور القاتمة القاسية بطلا إثر بطل !.. واذ ذاك يعرف الناس ان الاله الاكبر (وشنو) قد تجسد في كل منهم كما تجسد الآلهة الاخرون في كل اعدائهم ..

أترانا ، حقا ، على هذه الارض آلهة تصطدم بآلهة ؟

راما

هل أتاك حديث راما ؟ إنه بطل الرامايانا ثانية الملحمتين الرائعتين الهنديتين وقد تحدث عنه الهنود في (٤٨) الف بيت من الشعر .. فقط !

زعموا ان الالهة ضجت في عليائها من عسف ملـــك الجن وسيد عفاريت الغاب (راونا) بعد ان سام كهانها الهوان ومنع عن أنوفها قتار القرابين ! فرأى مجلس الارباب أن يتجسد الاله وشنو ، احد الاقانيم الثلاثة ، بشراً ارضيا لحربه . وكان الذي أرادته الالهة . فولد وشنو في صورة (راما) ابنا لأحد الملوك وشب عنده وتزوج الحسناء سيتا ذات القامة الهيفاء والفم المخمور . ولكن احدى زوجات ابنه تعمل على إقصائه فيعتزل الناس في الغاب مع زوجته ، والغاب مملوء بالعفاريت الغاوية ! وفيه العلاة الرائعة الحس : سور بن أخت سيد الجن (راونا) الا تراها تحاول إغواءه ؟ بلى ! ولكن الزوجة الصالحة تخيق محاولتها معرضة بذلك نفسها لخطر الافتراس والتمزيق

بالاظافر ! ويتمكن أحد اصدقاء راما من جذع أنف السعلاة وصلم آذانها !

ولم تستطع سورين الانتقام لأن العفاريت الاربعة عشر الفا التي جاءت اليها بعد ذلك هوت على شباة النبال السحرية التي قذفها بها راما ! فذهبت تلك المحنقة المرزأة الى اخيها « ذي الوجوه العشرة والذرعان العشـــرين » تستنجده .. وتطير المركبة السحرية (براونا) الجني الاكـــبر الى الغاب لاختطاف سيتا ..

كان رامافي كوخه مع حبيبته يستمع لهمس النجوى منها: اقسم بحبك أنني لاارغب في سكنى السماء بعيدة عنك . انت يا سيدي وانت دليلي وانت إلهي . سأذهب معك . اراك تريد دخول هذه الغابات الكثيفة الوعرة فسأسير امامك لأحطم تحت قدمي العشب الناهض والعوسج الشائك فأشق لك طريقاً .. ايها الامير العزيز ! ثق بوفائي » .

كان راما يسمع لنجوى سيتا حين بداله الظبي السحري (مارتجـــا) انه ظبي رائع غريب يظهر تارة ويختفي اخرى ويعدو حيناً ويقف حينا آخر . انه « كالقمر في الخريف تحجبه السحب تارة ويبدو عند تقشعها تارة اخرى » .. فتناول راما قوسه ولحق بالظبي فوق هذه الرابية ثم وراء ذلك المنحني ثم بين الشجر الملتف . وكان المستمع لراما يسمع هتافه المتزايد في البعد خلال الغابة « هاهو ذا يقبل .. اراه .. لقد توارى !..

لقد ظهر ...

استطاع الغزال السحري ان يستدرج راما بعيداً بعيـدا عن عش غرامه بينما كان (راونا) الجني الماكر يتقدم في زي احد الزهاد الى العش ويدعو سيتا الى مركبتـه فتركب .. وتطير المركبة المسحورة في الهواء والدمع بحمرة الدم يتطر منها ! ولم يستطع النسر ، ملك الطير وصديق راما ان يوقف المركبة ورغم انه شوه (راونا) فقد هوى من السماء قتيلا ، كتلة من الريش والدم! ووصلت المركبة بالسبية الى قصر الجن الاكبر في سيلان !

ويضرب راما في كل فج بحثا عن الحبيبة المفقودة ، يسأل عنها الدوح والثمار وزهر النيلوفر ويكتشف له احد القرود مكانها فيغزوه بجيش تتنزل الكتائب من السماء لشد ازره : وبعض هذه الكتائب مخلوقات ذات رجل وذرعان كثيرة تلبس الاساور المرصعة بالجوهر وترتفع في الهواء كأنها الافيال والجبال ورؤوسها الكثيرة تقذف النار من العيون والافواه. وبعض الكتائب الاخرى في صور انواع الوحش من الخنازير الى القطط . وفيها الثعابين الرقط والضفادع والحيتان والتماسيح! وبعضها بغير رؤوس وترمي الشرر من المسام ، وبعضهـــا تنفث كل شعرة في جباهها وابدانها باللهب وترمي بشرر كالقصر!

كان الهجوم رهيبا بعد هذه الكتائب اذ زلزلت الجبـال واقتلعت الرواسي وتهاوت الغـــابات فوق الرؤوس وضجت

الارض بالاصوات المنكرة وسقط اخو الجني الاكبر صريعا بسهام راما فسحق الفي فرد عند مسقطه ! وما كان (براونا) قد هزم بعد حين جرح راما جرحا قاتلا ! لكن ملك الدببة يعرف لحسن الحظ نباتا سحريا على جبل بعيد اشفائه وحين ارسل ملك القردة لحمل هذا النبات اقتلع الجبل جميعه واتى به ! فلما برىء راما عاود المعركة وسدد السهم الالهي الذي اهداه اليه براهما فأصمى به فؤاد براونا ! واذ ذاك هتفت الآلهة الخالدة للنصر الاكبر ، نصر الخير على الشر ..

* * *

منذ قرأت الاسطورة وانا اسأل نفسي متى تراها ، هذه الآلهة ، تهتف مرة اخرى !

في ايسلنده

اقلب صفحة الهند الحارة لانتقل ، في مثل قفزة مردة الاساطير الجبارين . إلى الشعوب الشمالية ، والنقلة من حرارة الى صقيع الجليد الشمالي نقلة غير مأمونة ، ولا يبعد ان نصيب منها بعض النزلة الصدرية ! ولكن الرؤى الاسطورية هناك من الطرافة بحيث تستحق هذه المغامرة !

لن تحط عند الجرمن او الغاليين ولا السكسون ولا الفنلنديين ولكن في تلك الجزيرة البعيدة الموحشة : ايسلنده ذات البراكين الهامدة ، والكهوف المظلمة ، والجبال القفر

والقمم الجهمة ، عليها لمع الثلج كتفاريق الشيب في الهامة الشمطاء ...

هناك ، في تلك الجزيرة ، وفي تلك العصر الذي انشدفيه هيرميروس إلياذته والهندي القديم مهابهارتا ، تغنى الناس بآلهتهم الابطال اغاني ملؤها الخيال والرهبة وبقيت تلك الاغاني على الشفاه حتى اتاها قسيس نصراني كان لا يزال فيه عرق يدس إلى دين اجداده الوثنيين فجمعها عن الالسنة في ملحمة واحدة هي الالدار (١) .

وتقرأ الالدار فتجد البطولة والالوهية قد التقتا في مفهوم واحد وتجد الاله المعبود هو نفسه البطل الشعبي ثم لا تجد لذلك الاله ـ البطل من موقف رائع امام القدر ولا تعرف له من الخوارق او عظة الاخلاق ما يذكر . وإنما هي رموز فقيرة وتجسيد ساذج للطبيعة ، وروعة البطل لا تظهر في عمله ولكن في حجمه ! !

يقولون مثلا إنه لما تحارب الجليد والنار حدثت ريح ، حارة اللفح ، تكوّن منها مارد اسمه (يمير) ثم احتال الآلهة حتى قتلوا ذلك المارد واخذوا جثته فجعلوها (دنيا) فامادمه فذلك هو البحر واما لحمه فهو الارض والصخور عظامه وجعلوا حاجبه مسكناً لهم وهو الجنة (اسجارد) ورفعوا جمجمته

---

(١) هذه هي الملحمة الشعرية وهناك ملحمة اخرى مثلها نثرية جمعها رجل من سادة ايسلندة بعد هذه وهي حافلة بالعقائد الوثنية .

فهي قبة الفلك واما ما بها من دماغ فهو السحاب .

ولا ادري بين هذه الافكار المادية الهائلة التي ينغرس اصلها في الارض وفرعها في السموات . اين وضعوا بعد جهنم (جوتنهيم) تلك البقعة القصية الخراب التي يسكنها (المردة) اولئك المخاليق الجسام ، الشعث ، الغبر الصور الذين يلتقي فيهم طبع الجليد ولذعة النار وزوبعة البحر ...

ويمضي الخيال الشعري بالايسلنديين على النحو الذي نراه: فهذا الجليد شيطان اشيب الشعر واللحية ، تراه إذا اظلم الليل يسوق افراسه البلق (اي سحب الرياح والبرد) الى كهفه القصي ليمشط شعورها . وهذا الرعد زجرة الاله ـ البطل (ثور) الذي يدفع عجلته فوق قنن الجبال فترتفع قعقعة اصواتها في الآفاق ولقد ذهب مرة الى ديار المردة ليحلب لصديقه الاله (هيمير) مرجلا يصنع به الجعة فالتقى هناك بشيخ الابالسة ذي اللحية المرصعة بالبرد وذي النظرات التي ما وقعت على عمود إلا انفلق من حدتها .. وبعد طويل صخب وعراك يأخذ ثور المرجل فيلبسه في رأسه فإذا هو قد بلغ قدميه ! !

ويذهب مرة اخرى الى حدائق المردة مع صديقين من اصدقائه فلما سجا الليل أووا إلى كهف وجدوه . ولم يكن الكرى قد عقد اجفانهم حين هبوا على ضوضاء رهيبة . فخرج ثور بمعوله العظيم ليراها ولكنها ... ما كانت سوى شخير

ومن ذا الذي يا ثور يصارعها من إنسان او إله ؟ واما انا يا ثور فأمك الارض ...

ونظر ثور ليرى أمه فاذا بالمارد قد تلاشى امام عينية !

باسيفال

دعونا اخيراً نزج هذا الشراع الاسطوري الجوال الى شاطئنا نحن . لقد طوف بنا عبر الزمان والمكان منذ اسابيع . واحسب ان الشقة طالت بنا قبل ان نصل الى هذه العصور التي نحياها ونسأل هذه الحضاره التي ننعم او نشقى بها عن مكان الاسطورة منها ؟ وعن البطولة ايان مثلها الاعلى ؟

لقد قتل هذا العصر الآلي ، فياقتل ، شعور العاطفة والفن الجميل ، واضحت لغة الهاتف والبرقية هي المسيطرة وقراءات الريدرز دايجست هي المرغوبة ، ومذهب المادية الجدلية او مذهب الذرائع هي الفلسفة الكلاسيكية المقررة . واظن انه لا ثغرة في هذا الزحام المادي تدس منه الاسطورة انفها ، ولا افق يطلع منه الوهم قرنه ، ولا منفذ للتساؤل الروحي العميق ! تقرر هذا منذ انتصرت نظارة غاليلة على مغاليق الفلك ومنذ دخلت العلوم في تجريبية باكون وميكانيكية ديكارت ، ومنذ ظهرت الآلة ، هذا المارد الجبار ذو مئات الانوف التي تنفث الدخان في الهواء ، ومنذ تعلقت العيون بالطبيعة وذاب ، امام المعادلة الرياضية ، ما وراء الطبيعة !

هكذا اختنقت الاسطورة بين صرير الالة وقسوة القانون

مارد ضخم وقد تبينوا ان الكهف الذي باتوا فيه ليس غير قفاز ذلك المارد .

وقد حاول ثور قتله فضربه بالمهول ضربة تصدع الصخر الاصم فلم يفعل المارد اكثر من انه انتبه وحك وجنته ! وقال ورقة سقطت من الشجرة ! ونام ... وضربة ثانية اشد من الاولى فقال المارد : حصاة وقعت ... ونام فلما ضربه الثالثة بجماع قوته قال : لا شك ان في هذه الشجرة فوق عصافير تلهو وإلا ما هذا الذي يزعجني ؟

وقد تعارف (ثور) على المارد بعد ذلك وترافقا في اليوم اليوم التالي فدعاه ذلك العملاق الجبار الى وليمة وقدم اليه كأساً ليشتفها فكرع فيها ثلاثا طوالاً فما احدث نقصا واومأ المارد إلى قطة فسأله رفعها فما رفع (ثور) بعد الجهد إلا احدى قوائمها وقال المارد واهله : ما انت برجل يا هذا ! انظر هذه العجوز البالية فهل تصرعها ؟ ولكن كل قوة البطل ثور وكده ذهبا ادراج الرياح !

ولما هم ثور بالرحيل قال له المارد : لقد غلبت ايها الاله ولكن لا تخجل ! إن هذه الكأس التي شربت منها هي البحر وحسبك انك احدثت به جزراً ، ومن ذا الذي يا ثور يبتلع البحر ؟ واما الهرة . فتلك الحية التي تلتف حول الارض الارض وتمسك اجزاءها ان تنفطر ، اتراك كنت برفعها محاولاً رفع العالم ؟ واما العجوز فهي الدهر والهرم والخلود

العلمي ولم يعد للوهم من مكان عند اجيال تؤمن بالمادة ،ولا لابداع الخرافة من سبيل في عالم يحسب انه حقق الخرافة ! ثم لم يعد هناك من مواقف مثالية من البطولة ولا من ابطال يتجاوزون الانسان الى ما فوق الانسان ، والى ان يصبحوا انصاف آلهة ! بلى ! إننا قد نجد . ولكنها مواقف صغيرة فردية لاشخاص ارهقتهم القلق وصهرهم الألم وحدهم كبروست وتولستوي وهايني وريلكه .. مواقف شخصية تتسع وتتضاءل بقدر عمق الشعور بالمأساة وعظم الاحساس بالوجود المستعبد ! ونذر ان يرتفع هذا الموقف ليصبح قريبا من البطولة كما فعل نيتشه مثلاً حين وقف به فكره امام هوة العدم وصقيعه فما تزلزل ،وحاول الانتصار بخلق الانسان الاكمل (السوبرمان). وكما فعل طاغور الذي انتصر على عبودية وجوده بالحب ،وبالفناء في الحب وكما فعل واغنر الذي افرغ شحنة تشاؤمه وسمـــوم كآبته في الموسيقى الاسطورية وانتصر على مأساة الانسان وعلى قدره الساحق بصوفية الفن ...

ان العالم الحديث بحاجة الى شيء من الروح ، من القلب ومن الرحمة ومن التسامي الصوفي . واذا وجدت الاسطورة فيه فلكي ترمز الى هذا او هذا ، على الاقل ، مافعله واغنر في درامته المشهورة (بارسيفال) . ان الكثيرين لم يسمعوا هـذه الدرامة موسيقى . وفيها صفحات لم يكتب مثلهـــا باخ في الموسيقى الدينية . كما ان الكثيرين لم يقرأوا شيئاً عن قصة بارسيفال .

يروون ان الملك آمفوراس ذهب مع غوايته كل مذهب واعنق في تتبع اللذات مع (كوندري) الغاوية اللعوب ، وسيطة الساحر الرهيب (غلينغسور) رمز الشر . وقد عوقب الملك على فسقه بطعنة من حربة مقدسة يخفيها الساحر عنده لايشفي جرحها الا انسان طاهر !

في ذلك الوقت يصل الى قرى الملك والى قصوره شاب اشعث الشعر يغطيه لبد الفرو ، يضحك الحراس من سذاجته ، ومن براءة الطفل في عينيه وقلبه ، ويسألونه عن اسمه فيقول : بارسيفال . ويسمحون له بالمرور والتجوال ..

وعند حافة احد الغدران يرى بارسيفال منقاراً احمر يخوض الوحل وقائمة رفيعة منتصبة يقوم من فوقها طائر ابيض . هذا مالك الحزين ! ويتملك الشاب هوس الصيد فيتناول قوسه ويصميه بسهم . ولكن ما ان يتفجر الدم وتنتثر نقاطه الحمر كالعندم ، على الريش الابيض حتى يغضب بارسيفال على قوسه وسهامه فيكسر القوس ويرمي بجعبة السهام الى قاع الغدير . لقد لامست الرحمة لاول مرة قلب هذا الشاب البريء .

ويدخل بارسيفال معبد القصر ويحضر القداس فيه وتملكه الرعدة فجأة حين يسمع شكوى (امفوتراس) الباكية الشقية وينصت الى النشيد الديني الصوفي الذي يعلن مجيء البريء ذي القلب الطاهر ، مصطفى الاله الذي يستطيع بفضل رحمته ان يضع حداً لآلام أمفوتراس الملك .. ولكن بارسيفال لايزيد

على رعدته شيئاً . انه مافهم كلمة مما قيل وكان يجهل نفسه فما زاد على ان قلب في جموع المصلـــين نظرة حيرى ... ويأتي حارس المعبد العجوز فيطرده من بين جمهرة القانتين !

يصل بارسيفال في طريقه الى قصر (التلاشي) حيث تسكن (كوندري) الحسناء رمز البذخ ورمز الظمأ وتتصـدى له الفاتنة بمثل اغراء الطعام الشهي للجائع المحروم ولكن بارسيفال يصمد للغواية وينتصر عليها .

ثم يأتي قصر (السحر) فينتزع الحربة المقدسة من الساحر الشيطاني ويشير الى القصر باشارة الصليب فاذا هو أطلال !

وحينئذ فقط ، حين انتصر بارسيفال على الخطيئة وعلى الشر يشعر برسالته وبانه المنقذ المنتظر فيلمس جرح الملك فاذا هو بريء!

* * *

إني ، مع واغنر ، واحسب ان هـذا العالم الجريح بحاجة الى قلب واحد فقط مفعم بالرحمة ، الى بارسيفال !

نهاية الاسطورة

الكثيرون منا قرأوا لغوته اسطورته المشهورة (فاوست) ان هذا الدكتور فاوست الذي باع روحه للشيطان مقابل نعيم جسده واستغنى عن نفسه مقابل القدرة على تسيـــير الكون والتحكم بالطبيعة يصح ان ينصب رمزاً لانسان هذه الحضارة التي تغمر العالم اليوم ما بين قطبيه وقاراته الخمس .

إن الجسد هو الذي انتصر . القانون الرياضي ، الآلة ، المادة

هي النهاية وهي الغاية التي يتهافت اليها هذا القطيع الضال. وفي اليوم الذي تصل فيه حضارتنا الحالية (أعني حضارة الغرب) الى السيطرة نهائياً ،على المادة والى وضع العالم كله في قانون رياضي ، إذ ذاك تكون قد ادت رسالتها ولم يبق عليها الا ان تنتحر !

ولا يعنيني هنا أن أقارن بين عصرنا هذا والعصور الخوالي. ولكني أرى ان السعادة التي يهدف اليها المجتمع البشري اليوم، هذه السعادة المادية التي تتجلى في كل مظاهر حياتنا: من ناطحات السحاب الى طرائق العلوم ومن التلفزيون الى الافكار الاشتراكية، هذه السعادة التي تقاس بمقدار ما في البيت من مدافىء كهربائية ومقاعد ،وثيرة وبقدر ساعات العمل والمساواة في الفرص ،هي سعادة زائفة ،وليست هي السعادة الحقيقية الداخلية ، إنها سعادة الجسد لا الروح . وإلا ،أفهذا النسيج من اللحم والدم والعظام هو فقط الانسان الذي يجب ان نهتم به ؟ أهذه الآلة الفيزيولوجية المتحركة هي أنا وأنت بكل كياننا ؟ لا أستطيع ان أؤمن بذلك لاني لا استطيع ان انسى قلقي الكياني او أغمض العين عن المأساة التي أحياها وعن توقي للمجهول وارتجافي للحب ،وعن تمردي على عبودية الوجود، ورهبتي الدائمة من المصير . وعن المثل التي اؤمن بها والارادة، ارادتي، التي أريدها حرة .

في هذا تكمن انسانية الانسان لانها هي وحدها مشكلته. ولقد كان الانسان القديم أبرع من الحديث في علاجهـــا . لقد

عالجها بالاسطورة ربما فاق الوهم الفنان ولكن الحضارة الحديثة عالجتها بالهرب منها . تناستها منذ باكون وديكارت الى رسل وجيمس ، لانها افترضت سلفاً انه لايمكن حلها ! ولكن هل يخمد التنامي ذلك السؤال الملحاح في اعماق كل منا :

من أين ومن نحن والى أين ؟

لايمكن ذلك ولهذا فان حضارتنا تعاني اليوم ازمـــة في الضمير ، أزمـة عميقة من القلق تظهر في اعلان اشبنجلر نعي الحضارة الاوروبية . وفي المذهب الوجودي في الفلسفة ومذهب السريال واللاوعى في الفن . ولم يعد يخاف على احد انه ليس ثمة من توازن بين القوى التي اطلقها الانسان وبين معرفته لنفسه . لقد روى غوته اسطورة زعم انه اخذها من الف ليلة وليلة ويصح ان تكون مثلا لانسان هذه الحضارة : هي اسطورة (غاندالان) الساحر الذي كانت عنده عصا سحرية يتمتم عليها بكلمة فتحمـل دلاء الماء وتذهب الى النهر فتملؤها وتعود لتفرغها في حوض البيت . ولا تكف حتى يتمتم عليها بكلمة الختام . وكان للساحر خادم سمع مرة الكلمة الاولى فانتهز فرصة غياب سيده وهمهم بها للعصا فغدت لمزاولة عملها وفرح بها الخادم الا انه حين امتلأ الحوض تذكر انه لايعرف الكلمة الاخيرة . وضرب جبهـــته يتذكر والعصا تذهب وتجيء بالماء ونتف لحيته يتذكر ، والعصا تذهب وتجيء . ولطم رأسه بجماع يديه يتذكر ، والعصا تذهب وتجيء . حتى امتلأ صحن الدار بالمـاء . فهجم على العصا وكسرها

قطعتين فأصبحت وياللعجب عصوين حمل كل منهما الدلاء وغدتا تملآنها وتملآن البيت .

لما عاد الساحر كان البيت قد اخذه الطوفان !

لقد قالت حضارتنا على ما ارى الكلمة الاولى ولكنها ما تزال تجهل الكلمة الاخيرة . وحضارة الجماهير والكمية والجسد حضارتنا هذه التي نحياها لست اكرهها ولكني اريد لها ان تكون حضارة الصفوة القائدة، وحضارة الكيفية وحضارة الروح. قد لا اقول بالرجوع الى الاسطورة ولو انها خصبة وغنيـــة ولكني اتطلع الى حضارة اخرى ترث هذه الحضارة او على الاقل تصحح اتجاهها ويكون شعارها : انقذوا الانسان . ولن تنبت هذه الحضارة في غير الشرق ، شرقنا العربي نحن الذي رسم للامم الاولى سبيل اطمئنان الروح واعطاها المثل السامية . ان علينا ان نؤمن برسالتنا هذه وبقدرنا هذا ونعمل لتحقيقه. ان الانسان لم يكن بحاجة الى احد يلقنه عبادة المادة والطبيعة ولكنه كان بحاجة الى انبياء يرشدونه الى طريق السماء والله ، ولم يكن بحاجة إلى أحد يعلمه الحقد والبغض ولكنه كان بحاجة الى انسان - إله يعلمه الحب !

باريس

- في صبيحة أحد -

... « إذا زرت باريس فلا يفوتك حضور صلاة في نوتردام » بهذا اوصته منذ كان في دمشق صديقة عزيزة . فاخذ على نفسه تحقيق الوصية منذ وصل . وبالرغم من ان زخارف الكاتدرائية وتماثيلها وسهام قبابها واقواسها القوطية قد بهرته من الخارج فانه ظل يعتقد ان ثمة ما هو اروع واوقع في داخل الجدران المسودة . ولم يكن قد دخل كنيسة قط حين نقل

اول خطانا نحوه مدخل نوتردام ، صبيحة الاحد ، ترافقه ثلاث إيطاليات حسبنه كاثوليكيا وحار هو كيف يكون عند ظنهن ؟

هناك سمع الارغن لاول مرة ، وهناك فهم « باخ » معلم الكلاسيكيين لاول مرة ايضا . كان يسمعه قبلا على الاسطوانات فيبقى في سطح نفسه ، وهما غائما ولحنا لاصدى له. اما الان فقد حال حقيقة وشعوراً وفكرة وحالت الالحان المرجعة بين الاعمدة السامقة والسقوف المقدسة خشوعا عميقا ارتجف له واهتز . وإذا قطع عليه « صلاته » التأملية شيء ، فذاك الجرس الذي كان يقرع داعيا الناس للقيام بين الفينة والفينة !

— ذات ليلة —

في الاوبرا ، منذ اجتاز مدخلها أحس بالغربة ، بل شعر بغربة الموجودين جميعا وبينهن اولئك اللواتي ما اتين إلا لعرض ازيائهن في البهو الفخم ! إن زينات الدار في سلالمها الرخامية وتماثيلها وثرياتها وزخرفها اللامع المذهب (على طراز لويس ١٤) لا تنسجم مع هذه الازياء العصرية التي تروح وترجع بين القاعات هذا الجو الباذخ المترف يحن الى الذين بنوه من ذوي الشعور المستعارة ، والصدار المذهب والدانتلات المطرزة حول الاكف ، والحرير الفضفاض.

حضر حفلات الاوبرا مرات ومرات لان هذا اللون من الفن قد راقه . صحيح انه قد اضاع الحفلة الاولى شارد العين

ولكنه بالرغم من أنه لا يمنح الكثيرين ما يمنحه كل جديد من لذة ، بالرغم من انه يحتاج في تذوقه الى ما يحتاجه تذوق الخمرة والموسيقى الكلاسيكية والمخدرات من ادمان ومران ، برغم ذلك فسرعان ما قبلت نفسه هذا الفن واخذ يلاحق بشغف الظامىء تلك الساق التي تدور ثم تنزلق من فوقها يد رشيقة ما تزال تنسحب ، بضراعة ، حتى الفم ثم ترتد مهتزة في الفضاء كموجة اليم ، ويفضي من بعد ذلك الطرف ، وتبكي الموسيقى ... أليست هذه الصورة درامة كاملة ؟ أمن الضروري الكلام مع هذه الحركة الناطقة وتلك الاشارة المعبرة ؟ أليس على الفم أن يصمت ما دام الجسد بكل جارحة فيه يتكلم ؟

. . . . . .

خيل إليه مرة أنه في لحظات سعادته هناك متعد على حياة أحد السعداء فسارق منها لحظات ليست له . وخيل إليه مرة اخرى انه يتعرف لاول مرة إلى نفسه التي كانت مخدرة في بلده كبعض ذوي الدم البارد من الحيوان في الشتاء فهي اليوم تستيقظ على جوها المنشود الذي يدب فيها دبيب الربيع في النسغ الحدر الهامد .

كان يشعر بقيمة اللحظة التي هو فيها فكانت كل شيء عنده . وكان يقتر في إنفاقها فعل الشحيح المروزي . وكان يشتهي الا تمر الثواني ولا الثوالث قبل ان يمتص كل ما فيها من رحيق . وتتنازعه في اللحظة الواحدة الهاربة عاطفتان : الحرص

على التي تمر والاشفاق على التي فاتت . كان هـــذا هو القلق الوحيد الذي يشغله ... ولكن الأيام كانت تتسرب راكضة من بين اصابعه وعيناه في أثرها تنظران .

– في ليلة ضاع منه تاريخها –

في تلك الليلة ولم يكن قد مضى على تعرفه باحدى فتيات الجامعة اكثر من ساعات اخذت هذه الفتاة بيده وبيد صديقه الى مقهى « الوجوديين » قالت له : « اني أؤمن بباريس ، بهذا الينبوع الخصب من الافكار الذي لا تضاهيه عاصمـــة اخرى ... انك لا تزال تجد في باريس جـديداً كل يوم ولا تزال تلقى لهذا انصاراً يؤمنون به ثم لا تزال تجد بين الانصار من يحول الفكرة عملا ويحياها بكيانه كله ... وبدعـة الحي اللاتيني اليوم هي « الوجودية » ، ومعظم شبـابه يطوفون كفراشات الربيـع حول « سارتر » .

والتفتت فتاته اليه بعد ذلك ريانة العين بالتساؤل وقالت : ألم تسمع « بالزاز » أنصار الوجودية ؟ ألم تصبح وجـودياً بعد ؟ ألست تحب ان تستمع الى سارتر ؟ ألم ترَ مسرحيتـــه « الأيدي القذرة » في مسرح انطوان ؟ أقرأت شيئاً لغابرييل مارسيل ؟ ألست تكره مثلي بعض أفكار كيركغارد ؟ أيهما ترى أشد اصالة . وجودية نيتشه أم وجودية هايدغر ؟

وأرهقته طول الطريق بالاسئلة ، فكان يجيبها تارة باقتضاب

واستفهام واخرى بانطلاق وعلم ... لقد كان وهو يدور مع دليلته بين مقهيي (تابو) و (الفلور) و (كلوب سان جرمان) يغمره الشعور بانه قائم في قطب العالم وكأنما تيارات الدنيا الفكرية تتدفق سهلة المنال عند قدميه !

ذكرت له ان « الزازو » (الوجوديين) يهبطون كل مساء مقهى الفلوري (سان جرمان) كما يهبط سرب العصافير في الحقل المحروث في اوائل الشتاء ... إلى الفلور !

دخل المقهى متصنعاً قلة الاكتراث ونظر في الناس نظرة جامدة عرف كيف يخفي وراءها كل الفضول الذي يدفعه . وجلس في الركن ليتفرس بالوجوديين الذين يملأون المقهى ! انهم ليسوا بحيوانات غريبة ولا بأثر فني مدهش ولكنه كان يراهم من خلال افكاره أناساً غير الناس وشباباً غير الشباب . انهم مخلوقات لم تضع حاجزاً فيما بين افكارها واعمالها ولم تعترف بمواضعات المخلوقات الاخرى . انهم صنع انفسهم ! كان في غمرة من تصوراته حين رأى الناس يتلفتون نحوه ونحو رفيقته ورفيقه ، ولم يكن بحاجة لكثير من الملاحظة ليلاحظ أنهم لم يكونوا يتكلمون الفرنسية وإنما يتبادلون الاسئلة بالانكليزية وانهم ... أوه ! كانهم غرباء مثله جاء بهم نفس الفضول الذي جاء به وحسبوه وجودياً كما حسبهم ... اما الوجوديون ... فلم يكن لهم هناك وجود !!

بعد منتصف الليل كان صاحبنا يتبع فتاته الى (كلوب

سان جرمان) ليشهد الوجودية في مباذلهـــا وليقارن بين الوجودية الفكرية التي يقرؤها والوجودية « العملية ؟ » الـــتي سيشهدها وتوقف قليلاً قبل ان تسمح له نظم النادي باجتياز باب الناعة التي امتلأت بمجموعة غريبة حية متنوعة من الفتيات والفتيان : هذا الذي جلس بقربه كان ذا لحية شقراء قصيرة وقميص مهمل الياقة مخطط بالحمرة ، وتلك التي انهكها الرقص فاستراحت الى صدر رفيقها ذات شعر غلمـــاني وسراويل مرفوعة الاكمام ، وهذه الفارعة القامة التي تدخل حديثـــاً الى الصالة تلقي كيس حوائجها عن كتفها وتجذب فتى شغلتـــه الكأس الى الرقص . . والجو محموم بموسيقى الجاز ورقصة « السوينغ » (الرقصة الرسمية للوجوديات) لا تنقطع وفي الارجل عربدة وفي الشفاه حمى وفي الاجساد اهتزاز عنيف وفي العيون شرر ولا مبالاة ... هذه ليـــلة « وجودية » استمرت الى الصباح .

وقد عرف صاحبنا طلوع هذا الصباح من تسلل الازواج والافراد من الصالة في كلل وهدوء . لقد وقعت عين احداهن عليه وهي ترمي كيس حوائجها على كتفها ثم تنطلق في طريقها ... كم ود لو يكون له كيس حوائج هو الآخر ليلقيه على كتفه — كما حمل السيد المسيح صليبه والفتاة كيسها — وينقل بعض الخطى مثلها الى حيث لا يدري !..

- في ظهيرة من آب -

لا يذكر انه كان هام في غابة بعد ، أو دغدغ مسارب الشجر في حنايا بلاده فلما وجد نفسه تلك الظهيرة في غابة فونتينبلو - عن غير قصد - غرق فيها وانطلق يركض كالطفل أفلت من يدي أمه . كان يبعثر الورق المصفر تحت قدميه ويطرب لخفيفه الجاف ، ويغريه العمق الضائع بين الاشجار ، فيمد يديه لاحتضانه . ولقد برم به صاحبه وهو يراه كالمعزاة الشريد يعد الاشجار حيناً ويلتقط الاغصان الميتة حيناً ويهوى ان يترك الجدد من الدروب ليشق لنفسه بين دانى الاغصان درباً ... أما هو فكم ود لو يمد في حضن شجيرات العليق هناك أو يضيع في دغل من الدغال فينسى نفسه وينساه الناس حتى هذه التي تناديه هنا بقربه وتلك التي تبكي له هناك في بلده !

- في يوم أحد -

أحب أن يتمشى . لم تجتذبه تلك الشقراء الناعمة التي حادثته في الاتوبوس فيتم طريقه معها . ولا استطاع الرفاق اغراءه على مرافقتهم للرقص في ضاحية روبنسون . ولكنه اطاع نصح صديقة انكليزية أوصته أن يتمشى في قلب باريس (على دعواها) أي ما بين ساحة الكونكورد التي تحد لندن باريس

لعبها وبين قوس النصر . ولم يشأ أن يقول لتلك الصديقة أنه يعرف لباريس قلوباً كثيرة موزعة ، أو أن لها من القلوب بقدر ما لها من العشاق ، وان كل ركن منزو منها على استعداد لان يكون ، في أعين الكثيرين ، قلباً خفاقاً حبيباً ...

ذهب على كل حال إلى ساحة الكونكورد ووقف فيها والاحرى ان نقول وقف في جانب ، بل نقطة من أركانها ، يتأمل الميدان العظيم . كانت الامواه تندفع ، كحبال النور متلوية متكسرة ، مزبدة حول التماثيل التي تملأ بحرتي الساحة . وفي الوسط كانت المسلة الفرعونية السمراء تنتصب في الفضاء أرشق قواما من غانيات « مايول » و « الفولي بيرجير » . ولعلها كانت تشعر بغربة « الوجه واليد واللسان » هناك فهي تتطلع ، عبر الضباب ، إلى اليد التي نحتتها منذ أربعة آلاف سنة ، وإلى الموطن الذي ضمها ذلك الدهر الطويل . هذا بالرغم من انها مطوقة من أركانها الاربعة بأوابد باريس : بالمادلين من الشمال وبمجلس النواب من الجنوب وبالتويلري وحدائقه من الشرق وبالشانزيلزيه على امتداد الطرف من الغرب ...

أتم طريقه في الشانزيلزيه مع سيول البشر والسيارات الزاحفة . كان يتعثر في كل خطوة بالجمال ويتعثر الجمال به . وكان يروي ذوقه البديعي من ثوب فتاة تنتظر الاوتوبوس على الموقف ومن واجهة مخزن نسقت فأبدع تنسيقها ومن كل تمثال يلقاه في ركن الشارع (وما اكثر التماثيل !) ومن حديقة

الرصيف اخرجت الورود فيها اخراجاً فنبتت هذه الزهرة بجانب تلك ، وخولف بين هذا اللون وذاك ، ومن الابنية لا تجد فيها نابياً ولا ثقيلاً ... كان يجد الفن مبذولاً على قارعة الدروب حتى في نظرة تلك الغاوية التي ابتسمت له في رقة ثم نزلت في نفق المترو على ريث من الخطو وانتظار !

وصل أخيراً القوس الكبير الضخم في نهاية «الشانزيليزيه»: قوس النصر ، ووقف أمام الشعلة الخالدة الملتهبة فوق صدر «الجندي المجهول» لا يدري فيم كانت الشعلة تهتز وتتلوى ، وقد تبعثرت من حولها نثارات من الورد .لم يتأكد له بعد أهي نثرت إجلالاً لذلك المحارب الدفين أم كانت تحية واعجاباً بآلاف السارحات على رصيفي الشارع العظيم !

— ذات يوم —

زار معرض (بيكاسو) وكان واحداً من ملايين الزوار. ووقف مع الواقفين يتأمل . إنه يهوى (غويا) و (سيزان) و (فان كوخ) ولقد جاء هذا المعرض يستطلع فناناً جديداً طالما أرهقه فهمه . ولعل همه كان أن يقرأ ما في العيون الاخرى التي تتطلع معه الى اللوحات اكثر من أن يقرأ تلك اللوحات الصاخبة اللون المستعجمة الطلاسم أمامه . ولم يجد غضاضة على نفسه على سؤال بعض المتأملين : ماذا يفهمون ؟ وكيف

يفسرون ؟ ألا يفضلون (براك) و (سيزا) أوليست ريشة (غوغان) أقوى ؟ أوليس (فان كوخ) أعمق تعبيراً ؟ أمن الضروري أن يبرز اللاوعي فيمسك بيد الفنـــان دون الوعي ؟

ولوحة « رأس إمرأة » ذات الوجه المصادف والعينين على شكل معين والفم الاخضر . أهي توحي لهم بشيء ؟ أوراء هذا الركام من اللون والزيت عبقرية ؟ . كان أجمل ما سمعه من الاجوبة كلمة الشيخ الذي أدار طرفه في القاعة بسرعة كأنه يلملمها في لفمة واحدة ثم أجاب بعد صمت قصير : « ربما » إنه كشف بذلك عن أعمق ما في نفس الامة المتكونة من ثقـــة بعبقرياتها .

– كل يوم –

كان يحيا الحرية هناك ويعيشها في كيانه كله . التقى بها في عرض الطريق على فمي حبيبين ملتصقين لا يلقي إليهما عابر بطرف ، وتنشقها في الجو الذي يرف فيه المرء رفاً كما لو افتقد الضغط الجوي ؛ ورآها في كل وجه التقى به فلم يســـأله من أنت ؟ ولا ماذا تفعل ؟ وكان اسمه الصغير كافياً مع الجميع لربط اواصر الصداقة . ولمسها في آلاف المذاهب والافكار لا يسخر بعضها من بعض ولا يحتد ذو مذهب منها على آخر ..

لقد تذكر في إحدى لحظات شعوره العميق ، اهله وبلده وقيود أهله وبلده فبكى ... إنهم يدعون باريس مدينة الشيطان .. أليس الاصح أنها المدينة التي يتحرر فيها الانسان من الشيطان؟

* * *

باريس ! إنه ليخجل من دعواه العريضة في هذا العنوان الذي يطوي بين احرفه الخمسة كوناً مترعاً . وانه ليضحك من نفسه انه حاول جمعه جميعاً في صور معدودة وعلى مدى صفحة من كتاب. هو يعرف انه مهما يتسع الاطار وتتعـــدد الصور وتتراكض الكلمات تبقى هناك زاوية من باريس مطوية على على نفسها ، وركن من باريس لم تدلف اليه العيون، وسر من باريس شارد بين مصابيح الشارع . هذه البقايا التي لم يرها أحد ولم يتصد لوصفها أحد هي سر باريس الجميل وهي أروع ما فيها !

عام وعام

بيننا وبين الثانية الاولى من عام الغد* .. عشرات معدودات من الدقائق ، لعلها من الدقائق القليلة في الحيـــاة التي نشعر بمرورها ثانية ثانية ... ولكن في مثل ركض الهـارب من الامر أو الجواد الجموح تلسعه السياط .. ولا ادري اذا كان الكثيرون مثلي يجاذبونها المدى ويعتصرون شفافهـا الهاربة كما يعصر المخمور ثملة الكأس الاخيرة ، يود لو يكون وراءها قطرة

(١) اذيعت حديثا في آخر مساء من أمسيات سنة ١٩٥٤ .

اخرى خبيثة ! فاني اشعر احيانا كأن بين لحظات الزمن وبيني همسا واسراراً ومساقاة سوداء .

ولقد تزورني اللحظـــة فتتمطى في عروقي ، لاتبرح .. وتزحمها اخواتها ، ويتخطينها في الزحام ، وهي تتلفت ابداً .. ولقد ابقى على هامش الزمن ، برهة لا ادري مداها ، ارقب اللحظات وهي تذبح ، امام أنفي ، من العماء البهيم لتعود الى العماء البهيم .. وكأني قد انتزعت من السلك الابدي واقبلت اتبادل الغمز مع (الارباب) . اتذوقت مرة هذه النشوة البكر ؟ ان فقراء القلوب وحدهم محرومون منها ، الذين لايرون الا بجمجتهم العظمية فقط لايعرفونها . ولقد طالما رثيت لابي العلاء شيخ المعرة وانا اقرأ في لزومياته :

الا انما الايام ابنـاء واحد وهذي الليالي كلها اخوات

كل شهوري لدي واحدة لاصفر يتقي ولارجب !!

لقد طالما رثيت له لانه لم يستطع ان يرى في اللحظـــة الواحدة الدهر الاطول ، لم يستطع ان يدرك التطور الخلاق في الثانية الهاربة !

واللحظات الاخيرة من العـــام هي عادة من هذا النوع الخصب من لحظات العمر ، يجتمع فيها كالبيـــادر الكريمة ، كالدنان التي تعد بالكثير ، حصاد سنة من العمل وآمال سنة .

* * *

... يدرج النظر كرة اولى في عام كامل مضى .. ومن

عادة الانسان دوما ان ينبش مخزن الذكريات في رأسه ، ان يستعرض الماضي بين فترة واخرى ، في مثل راحة الحادي يهدأ من الغناء لينظر أنى بلغت القافلة وراءه ، ماذا كان هذا العام المشيع ؟ : عدة مئات من ليل ونهار املأت حتى الفيض ، بسنابل سالت بها الحقول ، وسلع ركضت بكل طريق ، ومعادن طاوعت وقع المطارق ، بآمال خنقتها الغصص وسعادة اغفت على الجفون ، بخيام لاجيء ماتزال ترجف ثقوبها الريح الباردة ، ووساوس تاجر ماتوازنت في اوراقه « من » و« الى » وآلام عاشقة مزقت العطور والشرايين ، وسجين يخط على باب زنزانته خطا لكل يوم يمر .. امتلأت بمبدع يبكي ، ومحراث يأكل من الارض وتأكل منه ، وابنية تنمو كالفطر جداراً على جدار . وعـــالم يتخبط من القلق والدم ، كمن يتخبطه الشيطان من المس ، بين مراكش وكوريا وبورمـــا وليك ساكسس .. وسلم يعوي ورصاصة تعصف بصدر .. واشلاء وسياسيين .. وساعي بريد وطبيب وشاعر وجندي ومجنون .. الوان من الحياة ماتكاد تطوقها قلم ، اضطربت بها ، بين كانون وكانون ، هذه الكرة من الطين التي تندرج بين كواكب الفلك ، لمستقر لها او الى غير مستقر .

وكما تصغر الاشياء على البعد كذلك تصغر الذكريات : ونضحك اليوم ، لحظات ، من توافه الآلام التي مرت بنـــا

وسخافات الحقد والمجون فاذا العام الماضي كله قبضة من كلمات فرغت حتى الجفاف !

* * *

ويدرج النظر كرة اخرى في عام كامل مقبل .. انه الغد الذي لاسبيل اليه الا حين يأتي بنفسه الينا نحن نستقبله بابتسامة العيد وكلنا سؤال راجف !

عيد ؟! باية حالة عدت ؟ ياعيد!

بما مضى ؟ ام بامر فيك تجديد ؟

واسمح لنفسي ان انكر على شيخنا ابي الطيب بعض بيته هذا . فلست اؤمن بهذه الحكمة التوراتية ان : « لاجديد تحت الشمس » واكاد ، لولا حرمة التاريخ وثقله اقول بالعكس ان لاقديم تحت الشمس . لاقديم ! فالحياة تنبض كل لحظة بجديد . بعطر مامر ببال زهرة وفكرة ماعصفت بقلب ، ومجهول ما استسلم لعين . وسنبلة وعاطفة ولحن .. وكم وددت بقطع الاكف ، لو حبيت عمامة منجم وعين نبي ، وتحولت هذه الآلة اللاقطة امامي الى كرة من البلور تمر فيها اطياف الغيب ، اطياف غد وبعد غد ، لاقرأ ماسطر في اللوح المحفوظ من القدر .

ان احدنا ليستطيع القفز في المكان ، لاي مكان ، اما السفر في الزمن ، اما تخطى اللحظة ، فعبث من دعابات الخلايا والاعصاب . ولا مناص لمن اسمنت جسومهم فاكهة الارض

من ان يظلوا على ترابها ، ترابا ايضا . ان المفكر (ويلز) لم يبح باسرار الآلة التي مكنت احد ابطاله من مغادرة حجرته في البعد الرابع ، الزمان ، والفرار ، الى المستقبل !.. وتلك الجنية التي زارت في قصص الطفولة ، احدى الفتيات واعطتها خيط الحياة ، يظهر انها ليست على استعداد لان تزور ، مرة اخرى ، احداً منا فتعطيه الخيط الذي يستعجل مر الليالي والاحداث ويقودنا في لحظات الى الشيخوخة الاخيرة . ولن تقبل الارض ان تعجل دورتها فتختصر اليوم كله في بضع ساعات ... ولن يكون من انبياء بعد ..

سنظل دوما على باب الغد ، كالسائلة على باب الهيكل المهجور ، لا الباب ينفتح ، ولا يدها ترجع ملأى بعطية .. ترى ماذا يخبيء العام المقبل ؟ ان بعض السنين ، كبعض بني البشر ، منحت القدرة على ان تفرض نفسها في التاريخ باحرف من نار او زئبق فلا تنسى ! فهل يكون عام الغد من اعوام التاريخ ؟ هل ينتصر فيه الانسان على السرطان وهل يكشف سر السعادة ؟ وهل يهزم مارس ، إله الحرب ؟ وهل يأتي الى الوجود بعبقري ؟ هل يضرب الحصار على القمر أم يمحو نابليون من التاريخ ؟

وبعض السنوات عددنا ساعاتها عداً . وما كان أصعب التعداد وما أدمى ! أترانا سنعد ساعات العام الوليد مع دقات قلب الأم والحبيب والجريح ، انتخبط حمامة السلم البيضاء في

شبكة صيد ؟ ويظل المكروب أقوى من الانسان ؟ وتبقى ظلمات النفس اكثر سواداً ورهبة من تيه الجحيم ؟

قرب بيتنا نافذة تشكو للقمر ، وفي خيمة على الارض المقدسة ، رئة ينفث السل فيها سمه ، وفي ركن من السجن قلب مثلي يتألم ومثلك ، وفي بعض شعاب الأرض عائلة آمنة تزحف إليها القنبلة ... وبذرة حية في التربتنتظر الربيع... فهل تبقى النافذة والخيمة والرئة والعائلة والبذرة حيث تركها عام أمس : لا يأس ولا رجاء !

لست أدري ولكنها خواطر تأبى إلا أن تفعم هـذه الدقائق الاخيرة من العام بالحصب والمشاعر الحية ، وتأبى إلا تترك الآمال ، حرة الجناح ، « عصائب طير تهتدي بعصائب» وبسمات ، تضج بكل عين : بين معسر يرجو الفكاك ، وقيد ينتظر ان يفته الصدأ ، وغريق فر حتى خيال الشاطىء من خاطره ، ومزارع يصلي للمطر ، وسجين ولاجيء ومتسول وعالم . ألست تراهم كل هؤلاء من حولك كما أراهم من حولي؟ إني لا استطيع ان انساهم لانهم يعيشون في قلبي ، قلبي هـذا الذي أضحى كسفح الجبل مهوى سيـول ومرتع فؤوس ومنبت عليق وسنابل وزاوية كوخ ومحراب ناسك !

* * *

بعد عشرات معدودة من الدقائق سيلتقي عام وعام على

شفة تلك الثانية الاخيرة أو الاولى ، التي ينطفىء فيها النور وتهفو بها الى كل لهاة أمنية ! ويتجمع في تلك الثانية ثقل عامين جميعين ... انها القطرة التي يطفـــح منها الكأس ، كأسي وكأسك ، لثلاثمائة وخمسة وستين يوماً آخر . شعرة بيضاء جديدة ، خطوة نحو الفترة أو الهرم . تاريخ يتراكم . . أتخافه؟ أتتمنى أن تقف بنا عجلة الزمن لا تريم ؟ أتتمنى أن تتجمد هذه اللحظة ـ السنة ! أن الشمس لم تقف الا في الاسطورة ليوشع . أهاب بها وهو يحارب فتريثت لانغيب حتى انتصر .. والشباب الخالد كان منية الناس منذ كان شراب (النكتار) سراً من أسرار خلود الآلهـــة لدى الاغريق حتى زمن فورونوف . ولقد لحق الدجالون والحالمون والعلمـــاء ، على السواء ، بهذا الحلم ... وعبثاً ماركضوا وراءه . ان البـــابا اينوسنت الثالث طلب ان ينقل الى عروقه دم ثلاثة شباب لعله ينتصر على الهرم !.. ولكنه ما لبث أن ...

والعمر ليس لحظة تحل محل أخرى ؛ من لحظات الزمن الآلي الذي نقيسه بالثواني والثوالث أو بالساعات والسنين .. ان الزمن المنساب في عقارب الساعة نوع من التجريد العقلي نصطنعه لما يحمل من راحة وبساطة ونتمثله تمثلاً هيناً على شكل خط مستقيم : كل لحظة فيه تقابل نقطة من نقاط الخط! ... ثمة أزمان أخرى هي ألصق بنا من هذا الزمن الفلكي . وهي العمر الحقيقي لانا نعيش فيها وتعيش فينا : هناك الزمن

الفيزيولوجي الذي تنمو فيه عضوية الانسان وتشيخ ، وهناك الزمن النفسي الذي يسيل في أغوارنا ويلون شعورنا لوناً بعد لون إنه هو البعد الرابع بعد الطول والعرض والسمك فالانسان يمتد في الزمان امتداد جسمه في المكان وهو دوماً تاريخ يصور ، وشخصية قيد الخلق . وإلا فما معنى أن تكون دقيقة الانتظار ساعة وساعة الحب لحظة عابرة ؟ وما معنى أن نشعر بالضيق تارة دون مبرر ، وتركض على شفاهنا الاغنية تارة أخرى دون وتر ؟ ! العمر الحقيقي هو هذا العمر الدافق في أعماقنا سعادة وقلقاً ، وثورة ودمعة ، ومائة من ألوان أخر .. وكم من الحكمة في هذه الحكاية التي يروون فيها أن غريباً قدم بلدة فواجه عند مدخلها المقابر . واخذت عينه كتابة على بعض الشواهد فدهش ان يقرأ عليها : «فلان العالم الشاعر .. توفى وله من العمر سبع دقائق » والتفت الى اخرى فوجد عليها اسماً آخر لبطل من من أبطال المعارك . توفى وله من العمر نصف ساعة وتلفت يمنة ويسرة فوجد من ذلك الاعاجيب وتعلق بأول عابر في الطريق يسأله سر الخبر : إنهم يعتبرون لحظات السعادة فقط عمرهم الحقيقي !

وهنالك أخيراً بين أزمان الانسان ما نستطيع أن نسميه بالزمن الخصب . إن حياة الكثيرين منا ليست اكثر من يوم واحد مكرور ... عدد كذا من المرات ! والعمل الرتيب المكرور ، نفى للحياة المبدعة وانحدار الى آلية الغريزة . إنا

لنستطيع ان نضيف الى عمرنا اعماراً مترعة بما نحمله على اللحظة من الحصب ، بما نملؤها به من عمل ولون وخلق . ان في اهاب كل منا امكانيات لا حصر لها تسقط كالقشور الجافة كلما تقدمنا في السن دقيقـــة . وهي تموت ، وتنتحر كلما اخترنا الطريق الجدد المعروف ، الطريق الفراغ السهل ، وتركنا شق الصخور الى شعب ما عرفته بعد قدم ! ...

وما ينطبق على حياة الفرد ينطبق على الشعوب ، واعمار الامم لاتقاس بمقدار جذورها في التـــاريخ ، وما غزلت العناكب من حولها ، ولكن بمقدار ما قدمت لســـوق الانسانية من عمل مبدع وغنى في الروح . وكذلك فحيـــاة الانسانية أعمق وأوسع مدى من كل نكسة . انها لا تفشل في مكان أو عام إلا لتحقق نصراً أعمق واوسع في أمكنة اخرى واعوام أخر . .

هذه سنة الكون وهذا آينه .

* * *

إنا نفتتح العام بعيد ... بلى ! فالمهم أن نبـدأ الحياة كلما وثبت بنا أسبابها بأمل مبتكر ودفقة نشاط جديدة . المهم أن ان تنفض الورق المصفر في انتظار البرعم الوليد ، أن نقـابل الغد بقلب يطفح بالتفاؤل وإن لنا للثقة الكبرى بمستقبـــل الانسان . انا لنرى انه برغم كل شيء ، يزرع الحب وينمـو

الزيتون ويغني شاعر ، ويندحر ظلم ، وتتفتح في كهوف المجهول زهرة ... بل انا لموقنون اكثر من هذا ان سترتفع البيوت اكثر مما ارتفعت ، وسينضج الحب كما لم ينضج من قبل وسوف تثقل الكروم المعروقة اليوم بأطيب العناقيد في الموسم المقبل . لا بد من أن تنتصر قدرة الحياة المبدعة .

ومن عام الى عام

لبنة أخرى ترتفع في الكيان الانساني ، وخطوة اخرى نحو ما فوق الانسان .

الوجوديون

الوجوديون ، لا أستطيع ان أقول اني عرفتهم . لقد لقيت عوامهم كالفراش الضال ، فتيات بشعور غلمان وفتياناً بقمصان عذارى بلأون ارصفة شارع « سان ميشيل » ومقاهي « سان جرمان » . كما لقيت الملوك ذوي التيجان منهم وذوي الهالات الذهبية على صفحات الكتب وبين احرفها السوداء . كان الاوائل يرطنون بـ « الآرغو » وبذاءة العامة ، بينما يمضغ

الآخرون اعقد المصطلحات الفلسفية ، وفيما بين هؤلاء وهؤلاء ترتبت لدي الاجزاء والنتف والتأمت في صورة عن الوجودية ، لا ادري مدى قربها من الحق او بعدها عنه ، ولكنها حبيبة الي لانها من صنع نفسي لنفسي ، ولانها وجوديتي أنا .

وانك لتضل إن شئت معرفة الوجودية — على الطريقة الكلاسيكية مبتدئاً بتعريفها . فان اصحابها يفضلون التعبير غير المباشر عن الفكر : يفضلون عرض آرائهم في قصص أو درامات ، وفي يوميات خاصة وكتابات تردد صدى الحياة الشخصية « ان الفكر الوجودي لا يمكن نقله من شخص لآخر » ، وان الرغبة في تجنب التعاريف هي دليل الوصول الى المفاهيم الوجودية ، هكذا يقول مبدع الوجودية الدانمركي كيركغور .

ولك بعد ان تغرق في عتمة الافكار وسرابها ، أو تلف في تيه بني اسرائيل في انتظار المن والسلوى ، أو تحمل مصباح ديوجين في انتظار التفتيش عن الفكرة الاولى وهي بجانبك ، لك كل ذلك ، ولكنك لا تستطيع الخروج بشيء ما لم تمسك في طريقك بيد احد الوجوديين ، والملوك منهم خاصة : فتقرأ « دم الآخرين » لسيمون دوبوفوار أو « ما هو الميتافيزيك » لهيدغر أو « الكائن والعدم » لجان بول سارتر . وما اصعب الصحبة ، وما أوعر الطريق ! ولا تخرج بعد هذا

العناء كله بالوجودية « كما هي » ولكن بوجودية شخصية ، خاصة بك . فثمة مذاهب وجودية بقدر ما هنالك من وجوديين .

بل يخيل إلي أحياناً ان ثمة وجوديين كثيرين ولكن لا وجودية !! واحد تلاميذ هيديغر هو الذي وضع هذه النكتة على لسان استاذه . « لقد انتهيت الى قرار ، ولكني اجهل فقط حول أي شيء ؟ » !

إن الكثيرين يضعون أيديهم هنا على مطالع « العدمية » (النيهيلزم) في المذهب الوجودي هذه العدمية التي تتجلى لديهم بأشكال ومبادىء اخرى مختلفة تجعل من الوجودية في نفس الوقت تشاؤم العصر وارادة الحياة فيه معاً .

ولست هنا في صدد تلخيص الخطوط الكبرى للمذهب الوجودي ، والا كان علي ان أذكر موقف الوجوديين من الوجود ومن الانسان ، ومن الله ، وكان علي ان نعرض الى لذعات الماركسيين لهم وخصام المتدينين منهم مع الملحدين ، ولكني اكتفي فقط بالاشارة الى هذه الخاصة التي تجعل المذهب الوجودي واسع الوفاض يتقبل النقائض دون أن يضيق بها ويترك في الصميم نوعاً من القلق الممض العنيف لا يدرك مداه الا من مارسه وعاشه . إن الوجوديين حين يجعلون الانسان من خلق نفسه بنفسه لا يحملونه صليبه فقط الى حيث يصلب ، ولكن يتركونه في عزلة قاسية لا تحتمل ، ويرمونه أمام المأساة وجهاً لوجه !

وليس تاريخ الوجودية بحديث ولا بغض العود ، فسلسلة الوجوديين تبدأ بسقراط (ويكاد هذا الأب للفلسفة يكون « الجراب » الذي يتسع لكل شيء) ويتلوه في القائمة افلاطون ثم يأتي عدد من الصوفية المسلمين (لا يعترف بالطبع عليهم وجوديو الغرب) ثم يتصل النسب بعد هذا (بديكارت) ، و (كانت) كل منهما في نطاق محدود الجوانب ، فالاول في الاسس التي اثبت فيها وجوده ووجود الله ..

والثاني من حيث ثورته المذهبية وتمهيده فيها لنشأة الوجودية ولجعل ظهورها ممكناً . وبعد ذلك التمهيد الطويل كله يظهر المفكران : كير كغارد ونيتشه ليضعا أسس المذهب الجديد .

وبالرغم من بعد الشقة – ظاهرياً – بين الفيلسوفين ، وبالرغم من انهما ابدعا كلاً على طريقته مذهبي الوجودية المتميزين : المؤمن المسيحي والملحد ، الا ان تشابهاً عميقاً جداً يربطهما ويعطي صوت كل منهما صدى وطابع صوت الآخر .

وتعاون أخيراً كثير من الكتّاب والمفكرين على إيضاح هذا المذهب ودعمه كالروسيين شستوف وبردياتف والفرنسيين كارل جاسبر وغابرييل مارسيل . وقد ظهرت الوجودية في فرنسا ظهور الغزاة الفاتحين سنة ١٩٣٧ على يد (جان زوال) إثر همود المذهب البرغسوني أو خفوت بريقه .

وانت إذا استمعت اليوم الى الضجة التي تثيرها مجلة

« الازمان الحديثة » او الى « سامدي - سوار » و « كومبا » والى الكتابات التي تزعمها بعد الحرب الاخيرة بقوة أدبيـــة واضحة جان بول سارتر « بابا » الوجودية الملحدة ، أو حضرت دوي المحاضرات الوجودية في القاعات واركان المقاهي وفيما بين السوربون وسان جرمان ، أو رأيت ذلك الشباب المأخوذ بالبريق الأدبي السحري لهذا المذهب الذي يحاول لحد كبير تحويل المشاكل الميتافيزيكية الى مشاكل نفسية ... إذ انتبعت هذا البحران شعرت بان القوم يحاولون ان يرفعوا المـــذهب الوجودي الى مرتبة المذاهب الفكرية الكبرى التي تعطي العصر صبغته النهائية . وإذا عربد من هذا الجنب الشيوعيون وقابلوا بالصفير هذه المحاولة او غضب من الجانب الآخر رجال الدين وثاروا (رغم الوجودية الكاثوليكية التي يقـــدمها لهم غابرييل مارسيل ، والبروتستانية التي ابدعها كير كغارد) فان الجهد ما يزال يبذل والأمس ما تزال توضع للاحتفال بادخال هذا المذهب نهائياً الى قبة « الجامعة » وتكريسه مذهبـــاً معترفاً به ؟

* * *

وبعد فهل استطعت أن أدلك على الوجوديين أو أعطي فكرة عابرة عنهم ؟ لعلي أنا نفسي لم اعرفهم بعد ، ولعلي لهذا السبب ذاته قبلت الخوض في الحديث معهم ؟ أسمعت بصبي

القرية الذي تحدث عنه أوسكار وايلد ؟ لقد كان يعود كل مساء الى الساحة فيتحدث لاهل قريته عن جنية الشاطىء التي رآها تخطر على الرمال مع الشفق وعن عرائس البحر التي تدفع الموج وترمي على الزبد. كان هذا دأبه كل مساء حتى كان يوم، وتبدت له جنية الشاطىء، على الشاطىء، بكل عرائسها وورودها وخرجت إليه عرائس البحر يلتمسن بعض حديثه الحلو ! منذ ذلك المساء صمت ولم يسمع منه أحد كلمة !

أتراني لو عرفت الوجودية حقاً والوجوديين ، أما كنت لزمت الصمت ، الصمت العميق ؟

حوار وجودي

إذا كنت في باريس ، ومررت بمفرق الطرق بحي (سان جرمان دي بري) ، أمام مقهى (الفلور) فأنت لا بد متوقف طويلاً أمام ذلك المقهى ، ذي الكراسي المضفورة ، من الخيزران ، وانت لا بد محملق في عتمة زاوية معينة فيه . . ولعلك ما كنت لتمر بذلك المفترق إلا لتقف الوقفة الطويلة التي يتوقفها الكثيرون هناك ، وإلا لتحملق في تلك الزاوية المعينة في

المقهى ؛ فثمة وراء دخان اللفافة الصاعدة النازلة نظارة تحـــلم تحت شعر أدكن غير مرجل ، ورأس مستدير عبل يقوم فوق جسم عبل ... ذلك « جان بول ســـارتر » إمام المذهب الوجودي الجديد ، والنجم الذي ندر لكاتب أو فيلسوف ان عرف الخط البياني لشهرته ما عرف خط سارتر من صعـــود سريع ، ومن ذكر متصل في الصحف . انه يحتل منذ سنة ١٩٣٨ المكان الذي كان يحتله جيد حوالي ١٩٢٠ .

وليست الوجودية مذهباً فلسفياً فحسب ، ولو كانت كذلك إذن لقبعت مع الحالمين في الابراج ، كالعناكب ، أو لظلت حبيسة في أحرف الكتب الدقيقة السوداء ، لكنها طرز من الحياة يحاول ان ينزل ايضاً الى الشارع ، ويدخل عليـك مخدعك . هي فلسفة لم تكتمل حدودها بعد ولا اسسها (وهل يمكن أن تكتمل ؟) . ومع ذلك فإن باريس التي تمنح كل مذهب حياة وحرارة ، ويتحول فيها الفكر بسرعة الى العمل ، وتجد بها كل عقيدة مهما تعقدت مفاهيمها ، سبيل الانحدار السهل الى انصاف المثقفين وسبيل « التعوم » بين العامة .. باريس هـذه جعلت من الوجودية بدعة الساعة . وهؤلاء الشبان الكثر الذين يطوفون حول سارتر اليوم ، كالشهب المحترقة القصيرة العمر ، هم « الوجـــودية » متمثله من دم ولحم وعظام وانفاس . وإنهم ليبرزون للعين دون بحث « ولتعرفهم في لحن القـول » ! فهم منتشرون على الدروب بين « سان ميشيل » و « سان جرمان » ويملؤون

مقاعد مقهى « الفلور » و « بور رويال » ، ويعششون في الليل بكهف « تابو » و « كلوب سان جرمان » ، فاذا كان اليوم الثاني ، شهدهم برج كنيسة سان جرمان المربع ، المسود ، المطل على الساحة ، يبرزون ازواجاً وزمراً الى اماكنهم بالامس : هذه الفتاة جمت شعرها كالغلمان تمر أمامك ، إنها أيضاً ترتدي السراويل ! وذلك الغادي بعيداً ؟ أهو شاب ؟ بلى ! ولكن ما ذلك اللون الاصفر المخطط لسترته ؟ وما ذلك الشعر المسترسل ؟ وهؤلاء جماعة يضحكون وهم دخول الى المقهى تختلط فيهم اللحى المعفاة بالخدود الطرية ، والكتب المهملة بالمعاطف المتراكمة .. وهنا أمام فضول الاعين منظر عابث كم تكرر : زوجان من البشر لا يختلسان القبلة اختلاساً ، ولكن يتسافيانها روية روية ... ويسقط عن كتف الفتاة الى الارض كيسها ، ذلك الجراب الذي حشرت كل حوائجها فيه ، في انتظار المأوى الذي قد يتاح لها ، وقد لا يتاح في الليلة المقبلة ... ولا تثير هذه المشاهد في الباريسي أي فضول !. لقد اعتاد أن يتسامح مع اصحاب « الحي اللاتيني » ، في الذي يبتدعه من نحل . واجداد هؤلاء الوجوديين الفوا مرة زمرة « الانكوابابل » في اعقاب عهد الارهاب . كما مشوا على نفس هذه الدروب ايام الابداعية و (جورج ساند) و (موسه) ، ورقصوا مع الرمزيين حول الفتى رامبو ، وحول بودلير في نهاية القرن الماضي .

وهؤلاء هم الاحفاد اليوم . ولكنهم جميعاً من صنع سارتر

سقاهم المذهب الوجودي في قصصه ومسرحياته ، وفي محاضراته التي قل من فهمها منهم ، ولن أقول في كتبه ... لا !.. فقد يندر فيهم من فتح صفحاتها الاولى ! ومع ذلك فهم « وجوديون » وفيهم اشباه « انطوان روكانتان » واتباع « أورست » ومقلدو « ماتيودولارو » واندادا « مارسيل »(١) وتحس فيهم حرارة الحياة ، وهم يجادلونك دفاعاً عن وجودهم ، بالرغم من انك قد تدور معهم احياناً في فراغ الكلمات ...

لست لأشرح هنا الفلسفة الوجودية ، فهي عزيزة علي . وقد كنت اشعر انها قطعة مني قبل ان اعرف سمها ، ولكن سأحكي حواراً وقع في زاوية مظلمة من مقهى « تابو » في ليلة من ليالي الصيف الماضي ، بعد منتصف ذلك الليل ... كان الجو يختنق بالدخان المعقود ، ولحن « السوينغ » يعزف بقوة وعنف ، فيثير الارجل عن الارض ثم يهوي بها هويا نظيما عجولا . واجسام الراقصين تقبل لتتدافع وتتدافع لتقبل . وانفرد بين الجميع راقصان احتلا الحلبة . فاما الفتى فقد كان يلبس حذاء من المطاط العادي ، واما الفتاة فقد حسبتها :

مجنونة ... والحسن لم تكتمل
فتنته إلا ببعض الجنـــون !

ولكني انسيتها حين لفت نظري في جواري ، فلم يجري

---

(١) هم ابطال سارتر الذين قذفهم في رواياته : « الغثيان » و « الذباب » و « طرق الحرية » .

على الورق ، ويد ناعمة سكرى تسرع في التقاط المنظر الراقص .. ثم تلقي به إلي ..

قالت : — اكره ، ! خذه عني ايها السيد الذي اجهله واكرهه ايضاً . هل قرأت « الغثيان »؟ أتذكر ماذا اوحى منظر اشجار الحديقة العامة الى « انطوان » لما بدأت تثبت « وجودها » امامه ؟.. الغثيان ! اتعرف ! هذا ما توحيه انت .. ما يوحيه كل شيء لي الآن !

ولم اكن متأهباً لعراك فلسفي مع شفة سكرى ، ففضلت ان اسمع ، ولكن باقي الحديث اتجه الى صاحبها الذي كان يقرأ من خلال لحية خفيفة شقراء :

— الجحيم هو « انتم » الاخرون !... ان الارتباط بكم يثيرني ويميت « وجودي » !

— يا طفلتي !.. كان يجب الا تقرئي سارتر . إنه لا يليق بحساسيتك المفرطة . كان يجب ان انبهك الى ان ديكارت بدأ بالشك ليصل الى اليقين ، وكذلك وضعنا سارتر في «الغثيان» امام كل اسباب اليأس ليصل من ورائها الى سبب يبرر الحياة .. ولم تع الفتاة كلماته الاخيرة ، لاني رأيتها تغيب فضلة كأسها في فمها وتحدج عازفي « السوينغ » بشدة . اما هو ، فأردف دون أن يتوقف :

— تخطئين ياطفلة ، اذا تصورت ان في الذي قرأته نظرية فكرية . ان سارتر لم يقصد اكثر من التعبير عن تجربة حية .

إنه لا يبرهن ، ولكنه يبين . وكل همه ان يضعنا فقط ، وجهاً لوجه ، امام وجودنا الانساني الذي لا تبرره اية ضرورة . إننا نريد ان نشعر ان العالم الذي حولنا والذي نحن معه ، إنما قام على منطق معين وغاية مرسومة ، وهو لا يستطيع إلا أن يكون ويوجد ، بل لا يستطيع إلا ان يكون كما هو .. والكشف الذي أتى به سارتر هو أن العالم والانسان يوجدان للاشيء ...

وضاعت بقية الحديث عني ، ذلك ان بهلواني الرقص كانا قد عادا الى الحلبة واستدارت الفتاة حول فتاها دورات ثم إذا بها على ظهره واذا بساقيها تتهان الرقصة الصاخبة في الهواء الاسود . .

حين ملت الصخب عدت الى وصل ما انقطع :

ـ وأي قيمة إذن للانسان ما دام ليس ثمة من شيء خارجي عنه يجعل له قيمة ؟

ـ ذاك يا طفلة ! انه هو نفسه قيمة ذاته . إن تصرفاته لم تفرض عليه لا من نظام إلهي هبط من عل ، ولا من نظام عقلي صاغه من اعماق ذاته أو تلقاه من خارج ذاته ، فهو حر أو يجب ان يكون حراً . فمن حريته يولد معنى حياته « ان الحياة تبدأ في الطرف الآخر من اليأس » !

وسمعت في هذه اللحظة قرقعة كأس تتحطم في يد احدى اليائسات .. ولكن ذلك لم يقطع عني الحديث :

– فانا إذن « وجودية » الى الصميم . لا فروض الله ولا اوامر الاخلاق ولا الماضي ولا الاهواء ولا البيئة الاجتماعية تفرض على تصرفاتي . . هذا « جرابي » معي دليل حريتي . ألست تقصد ان الحرية هي ان لا يكون للمرء من جذور تأسره ؟

– إنها اعمق قليلا مما يبدو لك يا طفلة . . انت كالشوندرة تخرج من الارض وجذورها معها ، ولكنها تظل في قبضة مقتلعها . ان الحرية هي انعدام التقيد . بحيث تكون كل لحظة من لحظات الحياة الانسانية مجال اختيار . إنها ليست محصورة في نوع معين من العمل ، ولكنها النسيج المشترك الذي لا يمكن ان يكون للوجود معنى بدونه . . والذي يشعرنا امام كل عمل ان باستطاعتنا ان نقوم به او لا نقوم . .

– انك تحاول ان تبدل الهزيمة امام القدر ظفراً ! و . .

– قد يكون ذلك . . قد يكون ذلك ياطفلتي . . وقد يبدو ان حرية الانسان على هذا النحو مستحيلة ، أو على الاقل فكرة تجريدية

فهل يأبق الانسان من ملك ربه
فيهرب من ارض له سماء ؟

وهل يمكن تصور انسان مجرد لا يمسك به طابع تاريخي او اجتماعي او نفسي او فكري . . ولكن جربي ان تفهمي هذه الفكرة البسيطة وهي ان وضع الانسان يجب الا يكون

بالنسبة اليه قيداً بل مكان اختيار حر بين مختلف الاعمال .
هنا طريق النصر !

ولم يكن يبدو على الطفلة انها فهمت حين زمت شفتيها والقت الى الارض بصورتين رسمتهما بينما صاحبها يتكلم ... واحدى الصورتين رسم لحمار بلحية شقراء ! . وقد انصرفت دون ان تودع وجرابها يهتز على كتفها !

* * *

لو خيرت لاخترت ان احمل جرابي وألحق باولئك « الاحرار » الضائعين بين ارصفة الدروب وعتمة الزوايا .

ثائر على الماضي

من اغذيتي اليومية ، وما اكثر هذه الاغذية التي اسمم بها كياني واتناولها : من الارض ، ومن الله — الهي انا — ومن الفقر ... من اغذيتي اليومية ان اقرأ قصص الثائرين ، واعيش في لحظة من اللحظات حياتهم الراقصة كالشرر الشرس ، واري كيف اندلق اللهب الاقدس في دمائهم ، وماذا وسوس التمرد من اللحون في آذانهم وفي القلوب . ولست اقول في

العقول ، لان العقل اشبه بالاله ابولون ، او بعمامة جدي ، همه ان يسهر على النظام الرتيب ، وعلى التكرار الوقور !.. هواي أنا مع وثبة الطفل ، ومع بروميثوس والمغضوب عليهم من رعيله اللعين !

* * *

وهذه صورة ثائر كنت افتش عن ملامحه امس « فيليبو مارينتي ؟

هو ايطالي يمن تغسلهم كل صباح شمس البحر الابيض المتوسط الدافئة المشرقة ، وهو زميل لدانونزيو ولبيراندللو ، ولكنه لم يحظ بالابهة التي طوقت الشاعر دانونزيو في الادب الايطالي الحديث ولا عرف الشهرة التي ادخلت الروائي بيراندللو الى بيت كل أديب ، وهو اخيراً نبي ثورة شاملة عميقة سماها « التطلعية »(١) ولكنها حين جاوزت حدود ايطاليا نسيت ، ولبست لدى الناس اسماء اخرى : التكعيبية ، الداجية ، الخلقية ، التلقائية ... ذلك انها لم تكن ثورة فنية فقط وان بدأت في الفن ولكنها كانت ديناً كاملا مع كل النظريات المتممة له : في السياسة والاجتماع وفي علم النفس والاخلاق وعلم الجمال .

ارتسمت الخطوط الاولى لهذه الثورة في مطالع هذا القرن وفي صحيفة (لاشيربا) وهي حسب رأي اصحابها تستوحي

(١) Futurisme

« سوبرمان » نيتشه، وليست اكثر من تطبيق له ، على طريقة واغنر ، ضمن نطاق التقدم المادي الحديث المادي لهذه الحضارة.

وعقيدة الحركة التطلعية تقوم – كما ينبيء بذلك اسمها – على عبادة المستقبل لسبب وحيد هو انه المستقبل وانه سيكون مجال التقدم المعبود ! وكل ما سبق ان وجد وكتب وصنع في الناس الى اليوم ليس – في عيني مارينتي – اكثر من كومة مقرفة من الاقذار المتعفنة تحمل طابع عبادة الماضي .

« احذروا كل شيء من الماضي الحقير واملوا كل شيء من المستقبل ولتكن لكم ثقة في التقدم وسواء كان هذا التقدم حقارة او اجراما او سرقة او لهيبا فماذا يهمكم من أمره ؟ فالحق دوماً مع التقدم حتى حين يكون مخطئاً ! »

وباسم هذا التقدم وهذه القابليات الجديدة في حياة المستقبل وفي الفن خاصة ، يعلن مارينتي حربا لا هوادة فيها على المثل العليا العتيقة ، وعلى كل العبقريات القديمة ، وعلى كل البناء العقلي للانسان ! « هدفنا – كما يقول – محو عبادة الماضي . هل فكرتم في جيش العبقريات المرحومة التي يعتبرونها خالدة والتي تخنق كتيبة العباقرة الاحياء ؟ نعم ! القبور تزحف دوما علينا ! والاحياء يعيشون ابداً في قبضة الاموات . في كل يوم يقتل الناس شاعراً حياً اذ يقذفون فوق رأسه بموميا شاعر كبير فارق هذه الدنيا منذ خمسة قرون ! »

هذه الرغبة في تحطيم كل حضارة الماضي تسوق التطلعيين

الى تهديم جميع المؤسسات السياسية والاجتماعية « فالنظام البرلماني طريقة مهترئة من الحكم » مثلا والتراث الماضي يجب ان يرسل للمحرقة ! « تعلموا - كما يقول مارينتي - كره المكتبات والمتاحف ! » وسيأتي اليوم الذي يندثر فيه الحب للحبيبة والزوجة والولد على السواء .. فالحب نفسه ايضا من مبتكرات الماضي ومن قيوده الدامية !

وليست التطلعية - في نظر مارينتي - حلما او مثلا أعلى ولكنها الواقع نفسه الذي ينتظرنا فيجب ان نجرأ على ان ننظر اليه ويجب ان نساعده على الوصول بان نتوق له وان نريده لانه هو قدرنا المقبل ولا يمكن الا ان يكون .

* * *

وبعد ، فهذه الثورة ، يا احبائي الثائرين عتيقة ! لقد اوحى بها ذلك التفاؤل الذي عم العالم في مطلع هذا القرن بنتيجة التقدم الآلي . ومارينتي ما قصد بهذه الثورة سوى عبادة الآلة ! « انا نجد الوقت الذي يلمس فيه العامل ذو الوجنات المسودة بالفحم ، حديد آلته بنفس اللذة التي يدغدغ بها العاشق اليوم صدر حبيبته ! وفي « البيان التطلعي » الذي اصدره مارينتي اول مايس ١٩١٣ يقول : « انا نشعر بلذة لا توصف في ذلك الخليط من اصوات الترام وضجيج السيارات وزعيق القاطرة . انه يلذنا اكثر مما تلذنا السمفونية الريفية او سمفونية البطولة ! » .

ولكن عصر تمجيد الآلة قد مضى ! ولهذا كانت هذه الثورة عتيقة المبادىء وما يبقى منها هو فقط ثورتها على الماضي والحاضر . اما والثورة التي نتطلع اليها اليوم ، فهي تلك التي تثور .. حتى على المستقبل !

حوار أمام لوحة

لست اذكر – على الضبط – مع من كان هذا الحوار ولا ايان كانت تلك اللوحة ، فالارجح انه لم تنفرج عنه شفتان. وان اللوحة لم توجد ، او لعل الحوار كان ، ولعل اللوحة وجدت ولكن ... اما في معرض (بيكاسو) في باريس حيث وقفت اسأل شيخا كان يحدق في الخطوط المبعثرة والالوان

عن السر الذي يبحث عنه !.. واما في غندول على القناة الكبرى في البندقية ، ناقشت فيه ذات امسية ، فنانة مرحة كانت تدافع عن خلود فن (براك) وهي تعبث بشعر صديقها الصامت !. واما اخيراً ، هنا في دمشق ، وفي بعض معارض التصوير ، إذ تقدمت إحداهن تسألني في نوع من التحدي ، عن هذا الذي يدعونه ، كما قالت (سريالية).

لست أذكر مكان هذا الحوار ، ولا زمانه ، ولا اشخاصه ، ولكن اصداءه ما تزال تهتز في مسمعي :

قال محدثي :

ـ يخيل إلي ان هذا العصر قد اضاع شخصيته الفنية . ليس ثمة من طريقة ـ ام ، او مذهب ـ قطب يدور من حوله المبدعون . ليس ...

ـ عفواً ! تريد أن تقول بالتقيد الفني ، وبان انتاج كل عصر هو صورة له ، أو يجب ان يكون صورة له ، وان هذا العصر لم ينتج صورته بعد ! !

ـ اجل ! بمعنى من المعاني !.. فهذا الجو الفني اليوم محموم قلق تتزاحم فيه (التكعيبية) مع امها الانطباعية) وتصطرع (التطلعية) مع ربيبتها (السريالية) ومذهب (الوحشية) مع المذاهب القديمة من (طبيعية) و (رومانتيكية) و (كلاسيكية) . انا لم نعد نعرف ، على الضبط ، ماذا يريد الفنانون ولا الغاية التي يركضون اليها !

ـ لعلك ستتكلم ايضاً عن الخلود ، ذلك المثل الاعلى العتيق الذي يسحق وجود الانساني سحقاً ! ولعلك ستقول لي ان الفن الكلاسيكي هو وحده الخالد ، او على الاقل اكثر خلوداً من هذه الرقاع المصبغة ! ..

وانقطع الحديث ، هنا لأن جماعة صاخبة زحمتنا على اللوحة التي كنا نستوحيها ، ووقفت تستوحيها هي ، قال احدهم :

ـ المؤلم انا لم نعد نعرف « هوية » اللوحة ولاي مدرسة هي ؟ واحسب اني في كثير من الاحيان امدح هذا واقدح ذاك بالتقليد . وان كنت ابذل جهداً كبيراً لافهم !

وقالت فتاة بجانبه :

ـ منذ قليل كان صاحب الصورة هنا يشرح مذهبه (السريالي) .. واحسب انه من الضروري ان يعلق نفسه بجانبها ليشرحها دوماً . على اني اذكر من كلامه المبادىء العامة فقط قال : ان السريالية ثورة شاملة لا تقتصر على الفن ولكنها تهاجم الدين والعائلة ايضا وكل المؤسسات الاجماعية على السواء.

ـ انها بذلك تؤدي الجزية المفروضة على كل مذهب ثوري !

ولم تأبه الفتاة لهذا الذي مر فقاطعها بمزاحه وانصرف فظلت تقول :

ـ ... واعتقد اني اؤمن بالسريالية كمذهب فكري ...

ـ دعينا من المبادىء والفكر ، ولننظر في انتاجها الفني !

أنا قرأت تعاريف السريالية في كل مكان : في (البيان السريالي) وفي (المعجم المختصر للسريالية) وفي (دائرة المعارف الفلسفية) واذكر ان زعيمها بريتون ... اندره بريتون ، يرى السريالية فعالية نفسية خالصة حرة ، تعبر بمختلف الوسائل عن الطرق الحقيقية للعمل الفكري .

ان الفكر ، كل الفكر الواعي ، وغير الواعي ، يملي ذلك التعبير ، ولكن ليس للعقل ان يراقبها ، وليس من الضروري ان نهتم فيها باى هدف « بديعي » أو « اخلاقي» أليس هذا يعني ان السرياليين يعتقدون ان « الحلم » هو المبدع الاعلى ؟ انهم لا ينكرون ذلك ويصرحون ان اطلاق العنان للفكر كما يشاء هو قمة الابداع ! انا لا استطيع في الواقع ان اقبل كل هذا...

ولم تفهم الفتاة من كلامه ، على ما يظهر ، الا فكرة الحلم ، فانها قالت :

– إذا كان الفن وجد لتوسعة الحياة ، أفليس جميلاً ان تكون حياة الانسان حلما متصلاً ؟ وهل تستطيع ان تنكر سلطان الخيال ؟ « ان الخيال الحر هو وحده الذي يعطيني ما يمكن لا نصرف اليه بكليتي دون خوف من الزال !... وان الفكر الذي يغرق نفسه في هذه السريالية يعيش من جديد اجمل جانب من حياة طفولته .. » !

وتململ الجميع من الحديث الفكري الذي طال ، إلا واحداً منهم تنطح فقال :

– لا ! لا ! هذه انهزامية وهرب ...

وثار ضجيج بعيد شغلني عن الحديث ، وضاعت الكلمات فيه . فلما ران الهدوء ، ثبت الى نفسي والى المتحـــدث فاذا به يقول :

– إني لا اعتقد مطلقاً ان من حق كل انسان ، ان يعرض علينا هذا السخف الخليط من اللون بالتهاويل ، ويدعى ان ذلك (حلم) . انا اقبل من المذاهب الفنية ما كان علميـــاً . . . الانطباعية والتكعيبية مثلاً تقومان على مبادىء صحيحة ثابتة . فأنا ارضى بتحليل الواقع الى بقاع الوان ، وبتحليل اللون الى مركباته الاصلية ليمتزج في العين نفسها . كما اوافق على تجريد عالم المادة من مرونته الطبيعية ، ومن خطوطه المستـــديرة وسبكه في قالب الخط المستقيم .. اعتبر هذا امراً علميـــاً وعلمياً جداً !

وتدخل متعالم امامه فقال :

– لا شك ان هذه المذاهب جميعا ، إنهي إلا اثر من آثار التطور العلمي الحديث . ان العلم نفذ الى حرم الفن وفرض عليه مكتشفاته . وبهذا الشكل ساير الفن منطق الحياة الحديثة !

وحاولت الفتاة العودة للحديث ، ولكن واحداً من الجماعة مهمل الشعر ، حالم العين .. كأنه فنان سبقها ليقول :

– ولم لا نرى ان هذه المذاهب اثر من آثار التحرر ونوع من الثورة ؟ ولم لا نرى ان هذا العصر الذي آمن بحق المبدع

في ان يثور – على طريقته الخاصة – هو الذي سمح لهـــذه المذاهب بالتعدد والتـــلون ؟ أليس اعمق ما في هذه الحضارة الحديثة انها تقوم على انماء وتأييد (فردية) الانسان ؟

وانصرف الجمع يثرثر بعيداً أو لعلنا نحن الذين انصرفنا عنه لنثرثر ، ولكن لا في حوارنا الاول فانه قد نسي ، واتصل باقيه بكلام الجماعة ....

– اي منبع للثروة والابداع .. هذا الانسان .

– واي منبع للسخف ايضا !

وبرم محدثي شفتيه بعد هذه الكلمة !

– إذا نحن استعرضنا مختلف الانتاج السريالي ، في الادب أو التصوير خيل الينا انا في مخبر واسع للتجارب النفسية اكثر منا في معرض للفن وقد يثير فينا بعض ذلك الانتاج مشاعر « بديعية » ولكن ذلك امر عارض. اجل ! ان الحلم يفتح لنـا ابواب الروائع . ولكن ألست ترى انه ما كل الاحـــلام بروائـــع ؟

– ...

– ويرفض السرياليون تنخل وتنقية ما ينتجـــون ! انهم يحاولون ان يحلو الفعالية النفسية الحرة محل الابداع الشعوري الواعي ، محتفظين لانفسهم بوظيفـة « الآلة المسجلة » . وما الذي يحملنا على القبول بكل ما يقذفه اللاشعور وقبوله على انه عمل « بديعي » ؟

ـ انه التحدي الصارخ !.. اعرفك ثائراً . وهذا مذهب ثوري لا افهم كيف تهاجمه ! أترى انه من الضروري دوما ان نصب انفسنا في قوالب الطبيعة ، او نصب الطبيعة في قوالبنا ؟ لا ! ليس ها هنا اساس العمل المبدع ولكنه في « الحرية » : حرية الخلق ، وحرية التعبير . ان الحرية هي وحدها كل ما يشوق في الابداع . وهي اثمن ما في الفن . . وما في الحياة ايضا ، لانها هي وحدها الباقية !

* * *

لست اذكر مكان هذا الحوار ولازمانه ولا اشخاصه ، ولكن اصداءه ما تزال ـ برغمي ـ في مسمعي !

دار الرواد للتأليف والترجمة والنشر

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072574872